رواء
مجلة فكرية دورية

• الجماعات والحركات الإسلامية ودورها في الحفاظ على المجتمع المسلم: سوريا نموذجًا
• تاريخ نضال الشعب السوري ضد نظام البعث
• تسريباتُ إبستين: مرآة الانهيارِ الحضاريّ
• قلق الذكاء الاصطناعي برؤى غربية

# الثقافة المجتمعية: رافعة بناء أم آلية تعطيل؟

37
العدد السابع والثلاثون
رمضان ١٤٤٧هـ - شباط/ فبراير ٢٠٢٦م

## هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

## ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

### ضمن المحاور الأساسية للمجلة

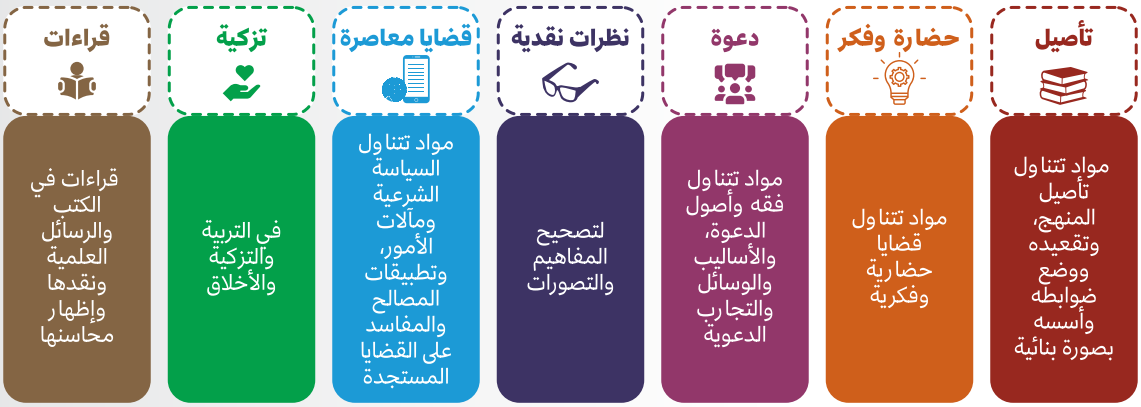


ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

## سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

# فهرس الموضوعات


١ الثقافة المجتمعية: رافعة بناء أم آلية تعطيل؟ ..... ٢
الافتتاحية

٢ تاريخ نضال الشعب السوري ضد نظام البعث ..... ٦
م. حسام طرشة

٣ الجماعات والحركات الإسلامية ودورها في الحفاظ على المجتمع المسلم: سوريا نموذجًا ..... ١٨
د. رغداء زيدان

٤ تسريباتُ إبستين: مرآة الانهيارِ الحضاريّ ..... ٢٥
د. مصطفى يعقوب

٥ دعوت كثيراً.. فلم يستجب لي! ..... ٢٩
أ. هدى عبد الرحمن النمر

٦ قلق الذكاء الاصطناعي برؤى غربية ..... ٣٥
د. محمد بن عبدالله السلومي

٧ التحفيز بالسؤال.. نماذج من القرآن الكريم والسنة النبويّة ..... ٤٢
د. طه ياسين

٨ رأس مال الأمة: كيف نحافظ عليه؟ ..... ٤٨
د. خالد طه المقطري

٩ التحولات المجتمعية وأثرها في أزمات الشباب ..... ٥٣
أ. هند معوض

١٠ قراءة في كتاب: (الحدائق الخلفية) لمؤلفه أحمد فهمي ..... ٦٠
أ. جهاد بن عبدالوهاب خيتي

١١ بأقلام القراء ..... ٦٨
مجموعة من القراء

١٢ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ..... ٧٢
د.خير الله طالب



رواء

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر كل شهرين

هيئة الشام الإسلامية


## أسرة التحرير


رئيس التحرير
**د. عماد الدين خيتي**

سكرتير التحرير
**أ. محمود درمش**

فريق التحرير
**أ. جهاد خيتي**
**أ. عبد الملك الصالح**
**أ. أحمد خالد أحمد**

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
**rawaa@islamicsham.org**

**www.rawaamagazine.com**
**www.islamicsham.org**

**rawaamagazine**

كلمة التحرير

# الثقافة المجتمعية: رافعة بناء أم آلية تعطيل؟

الثقافة المجتمعية ليست مجرّد رصيد تراثي يُحتفى به، ولا حزمة من العادات والتقاليد التي تُمارَس تلقائيًا دون مساءلة، بل هي إحدى أهمّ العوامل التي تشكّل وعي الأفراد، وتوجّه سلوكهم، وتحدّد علاقتهم بذواتهم وبالآخرين وبالسلطة وبالواقع. ومن هنا فإنّ السؤال الجوهري الذي يفرض نفسه اليوم ليس عن أهمية الثقافة المجتمعية، فهذا أمر لا يكاد يُختلف عليه، وإنما: كيف تعمل الثقافة في مجتمعاتنا؟ ومتى تكون عامل بناء وتقدم؟ ومتى تتحوّل إلى عائق يعطل الوعي والحركة؟

فالثقافة -بوصفها منظومة من القيم والمعتقدات والمسلّمات وأنماط السلوك- ليست خيرًا محضًا ولا شرًّا محضًا، بل هي أداة شديدة التأثير، قد تكون رافعة حضارية تنهض بالمجتمع، وقد تنقلب -في ظروف معينة- إلى عبء ثقيل يكرّس الخلل، ويُعيد إنتاج التخلّف، ويجعل القبول بالفساد والاستبداد جزءًا من الطبيعي والمألوف.

وحين نتحدث عن الثقافة المجتمعية في سياقنا الحضاري فإنّنا لا نقصد التراث وحده، ولا الدين في بُعده التعبّدي فحسب، ولا المظاهر الاجتماعية الظاهرة فقط، بل نعني ذلك الإطار الفكري والاجتماعي والأخلاقي الذي يتكوّن في المجتمع من تفاعل الدين، والتاريخ، واللغة، والعادات، والتجارب المشتركة، حتى تتحول كثير من الأفكار والتصوّرات والتصرّفات إلى بدهيات لا تُناقش، ومسلّمات لا تُراجع. وهنا تكمن خطورة الثقافة وقوتها في آن واحد: فهي تعمل غالبًا في العمق، بعيدًا عن الوعي المباشر، لكنّها الأكثر حضورًا في توجيه السلوك الفردي والجماعي.

## ملامح الثقافة التي تصنع أثرها:

تزداد خطورة الثقافة المجتمعية وأهميتها حين نلتفت إلى خصائصها الأساسية: فهي أولاً ثقافة مكتسبة، تنتقل بالتعليم والمخالطة والتنشئة الاجتماعية، لا بالوراثة الفطرية؛ وهذا يجعلها قابلة للتشكيل والتوجيه، كما يجعلها -في الوقت نفسه-

عرضة للتشويه والانحراف. وهي ثانيًا منظومة متداخلة ومعقّدة، لا تقتصر على العادات الظاهرة، بل تمتدّ إلى التصوّرات الذهنية، والمعايير الأخلاقية، وأساليب التفكير، وأنماط الحكم على الأشياء، وهو ما يمنحها قدرة كبيرة على التأثير، ويجعل تفكيكها أو إصلاحها أمرًا بالغ الصعوبة. وهي ثالثًا بطيئة التغيّر بطبيعتها؛ إذ لا تتبدل بين ليلة وضحاها، بل تحتاج إلى تراكمات زمنية طويلة، وهو ما يفسّر فشل كثير من محاولات الإصلاح السريع، كما يفسّر نجاح مشاريع الإخضاع الثقافي حين تُدار بصبر ونَفَس طويل.

## الوجه البنّاء للثقافة:

لقد أدّت الثقافة المجتمعية في مراحل عديدة من تاريخ المجتمعات دورًا مركزيًا في البناء والاستقرار، فمن خلالها تشكّلت الهوية الجمعية، وترسّخ الشعور بالانتماء، وحُفظت اللغة بوصفها وعاءً للمعنى لا مجرّد أداة للتواصل، وانتقلت القيم الأخلاقية من جيل إلى جيل بوصفها ممارسةً يومية لا شعاراتٍ معلّقة. كما أسهمت الثقافة في ترسيخ قيم التكافل والتضامن الاجتماعي؛ فشعر الأفراد أنّهم جزءٌ من جماعةٍ تتقاسم الأعباء قبل أن تتقاسم المصالح، وتواجه المخاطر بوصفها شأنًا عامًا لا مسؤوليةً فرديةً معزولة.

وعندما تتحول قيمٌ مثل الصدق، والعدل، والتعاون، واحترام الحقوق، وصلة الرحم، ومساعدة الضعيف، إلى ثقافة سائدة يتربى عليها الناس؛ فإنّ المجتمع يصبح أكثر تماسكًا وأقل عرضة للتفكّك والانهيار. كما أنّ الثقافة حين تحتضن العلم والمعرفة وتقدّر أهلها؛ تصبح وعاءً حافظًا للعلوم والخبرات، وتضمن انتقالها واستمرارها، فلا تنقطع السلاسل المعرفية مع تغيّر الأجيال. وفي هذا السياق لا يمكن إغفال الأثر النفسي والروحي للثقافة المجتمعية الإيجابية، إذ تمنح الأفراد شعورًا بالمعنى والاستقرار والطمأنينة، وتخفف من حدّة القلق والعزلة، وتُشعر الإنسان بأنه يعيش ضمن إطار قيمي يضبط الحياة ويمنحها معنى.

## حين تنقلب الثقافة إلى قيد:

غير أنّ هذه القوة نفسها قد تتحول في ظروف معينة إلى عائق خطير أمام الوعي والتقدّم، يحدث ذلك حين تُقدَّس الثقافة لكونها موروثةً فقط، دون تمييز بين ما هو قيميٌّ ثابت وما هو عُرفٌ بشري قابلٌ للنقد والتغيير. وحين تُرفع العادة إلى مرتبة الحكم، ويُعامَل الموروث بوصفه حقيقةً نهائية لا تَقبل المراجعة؛ تتحول الثقافة من إطار حيّ متجدّد إلى قيدٍ خانق، ويُعاد إنتاج الأخطاء جيلاً بعد جيل باسم الأصالة والحفاظ على الهوية.

وفي هذا السياق يضعُف التفكير النقدي والعلمي؛ إذ يُربّى الأفراد على التسليم لا على الفهم، وعلى التلقي لا على السؤال. ومع الزمن تفقد العقول قدرتها على التمييز بين ما هو ديني وما هو اجتماعي، وبين ما هو مبدأ وما هو ممارسة بشرية مشوبة بالخطأ. وحين تغيب محاكمة الأفكار والسلوكيات لا يعود الخطأ مستنكَرًا، بل يتحوّل إلى أمر معتاد، ثم إلى جزء من الطبيعي الذي لا يثير استغرابًا ولا مقاومة.

ومن أخطر مظاهر الانحراف ما يمكن تسميته: التبلّد الأخلاقي، حين تنتشر سلوكيات منافية للقيم والشرع، كالغيبة والنميمة والكذب والرشوة وأكل الحقوق ولا تُواجَه بالرفض الاجتماعي! بل تُبرَّر أو يُتغاضى عنها، فتتحوّل تدريجيًا إلى ثقافة سائدة، عندها لا يعود الفساد صادمًا، ولا الظلم مستفزًا، بل يصبحان جزءًا من المشهد اليومي الذي يتعايش معه الناس دون إحساس بضرورة تغييره.

وكثير من السلوكيات المنبوذة في المجتمعات اليوم هي نتاج أخطاءٍ تحوّلت مع مرور الزمن إلى «ثقافة مجتمعية» متوارثة، يشبُّ عليها الصغير ولا ينكرها الكبير، سواء أكانت تتعلق بالشخصية، كطريقة الحديث، أو بالألفاظ المستخدمة، أو طريقة الجلوس والمشي، أو اللباس، أم كانت متصلة بالمجتمع عمومًا كالتهاون بالأنظمة والقوانين العامّة، وإهمال المرافق المشتركة، وتطبيع الواسطة والتحايل، والتساهل في الكذب، والاستهانة بالمواعيد، ونحوها من السلوكيات التي تتكرر، حتى تصبح مألوفة، و«تتطبع» النفوس عليها وتعتادها، وإن كانت في الأصل منفرة مستقذرة.

> **الثقافة المجتمعية ليست خيرًا محضًا ولا شرًا محضًا، بل هي منظومة قادرة على أن تكون رافعة بناء إذا وُجِّهت بوعي، وقادرة في الوقت نفسه على أن تتحول إلى قيدٍ يعيد إنتاج الخلل إذا استقر فيها الخطأ ولم يُراجَع**

## النموذج الإسلامي للثقافة البنّاءة:

من أهم ما يلاحظه المسلمون الجدد ويستشعرونه في قلوبهم كثافة الآداب والقيم والممارسات التي يوصي بها الدين الإسلامي من خلال عشرات النصوص القرآنية والحديثية، سواء على مستوى الفرد أو الأسرة أو المجتمع، بل كثيرًا ما يكون بعض هذه القيم سببًا في إسلامهم؛ إذ يجدون فيها السمو الروحي والأخلاقي الذي يفتقده العالم اليوم.

إنّ هذه التعاليم الإسلامية ليست مجرد توصيات بشرية، أو أخلاقًا نبيلة فحسب، بل فرائض وواجبات أمر بها الخالق سبحانه الذي يعلم ما يصلح عباده، ومن أبرز هذه الفرائض: عبادة الله تعالى وحده، وأداء الصلوات في أوقاتها التي تطهر النفس وتربطها بخالقها، وبرّ الوالدين الذي قرنه الله بحقّه، والإنفاق على الأسرة، وإخراج الزكاة الذي يطهّر المال ويؤلّف القلوب، والصدق في الحديث، والوفاء بالوعد، وأداء الأمانة، والإحسان للجار، وإكرام الضيف. وهذه قيم إذا استقرّت في سلوك الناس جعلت المجتمع قائمًا على الثقة والتراحم، وأقرب إلى روح التكافل التي يدعو إليها الإسلام.

وبعضها الآخر سنن ومندوبات يحضّ على الإكثار منها، حتى قال ﷺ في الحديث الشريف: (كلّ سُلامى من الناس عليه صدقة)[1]، فكأنّ كلّ جزء من الجسد يدعو إلى الخير، ويدخل في هذا الباب حشد هائل من الأعمال التي لو عمَّت بين الناس فإنّ الثقافة الإيجابية البناءة تترسّخ في السلوك العام، وتنتشر آثارها في المجتمع، وتتجسّد هذه المنظومة القيمية في سلوكيات عملية، مثل عيادة المريض، ومواساة المحزون، ومساعدة الملهوف، والإصلاح بين المتخاصمين، وإزالة الأذى عن الطريق، وإدخال السرور على قلوب الناس، والصدقة على الفقير، وكفالة اليتيم، والسؤال عن الغائب، وهداية المسترشد.

وتبلغ الثقافة التي جاء بها الإسلام مستوىً جماعيًا، يتجسّد في مسؤوليات عامّة كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنع الحاكم من الظلم، ونشر العلم، وحماية الحقوق والأعراض؛ بما يجعل الثقافة الدينية قوة فاعلة في تنظيم الحياة العامّة.

وفي هذا الإطار يمكن النظر إلى الإسلام بوصفه منظومة ثقافية إيجابية متكاملة، أثمرت في مراحل تاريخية حضارةً امتد أثرها إلى العالم أجمع. وحين يضعف حضور هذه المنظومة في الواقع، تتراجع القيم الضابطة للسلوك، وتبرز فراغات أخلاقية تسهم في اضطراب المجتمعات وانتشار أنماط من الظلم والانفلات، وهو ما يذكّر بأهمية الدور الثقافي الذي يؤدّيه الدين حين يكون فاعلاً في حياة الناس، وبالآثار التي تترتب على تراجع هذا الدور، لا على المجتمع المسلم فحسب، بل على محيطه الإنساني الأوسع[2].

> **الدين حين يكون فاعلاً في حياة الناس لا يقتصر أثره على إصلاح الفرد، بل يصوغ ثقافةً قادرةً على تنظيم الحياة العامة، وترسيخ الثقة والتراحم، وصناعة بيئة أخلاقية تمتد آثارها إلى ما هو أبعد من حدود المجتمع نفسه**

## الثقافة المتخلّفة سلاح الطغاة:

اختزال مصدر الخلل الثقافي في المجتمع وحده يُعد تبسيطًا مخلًّا؛ لأنّ أخطر أشكال الانحراف الثقافي لا تنشأ بشكل تلقائي دائمًا، بل تُصنَع وتُدار؛ فالأنظمة المستبدّة والفاسدة لا تعتمد في إحكام سيطرتها على القمع المباشر وحده، بل تعمل -بوعي وصبر- على إعادة تشكيل الثقافة المجتمعية بما يخدم استمرارها، وهي تدرك أنّ إخضاع الجسد قصير وسطحي التأثير، أما إخضاع الوعي فهو أطول وأعمق أثرًا.

ومن هنا تأتي محاولات تزوير الذاكرة الجماعية، وتشويه التاريخ، وطمس تجارب المقاومة والإصلاح، وتحويل الاستبداد إلى قدر لا مفرَّ منه، والتغيير إلى فوضى لا تُحتمل. كما تسعى هذه الأنظمة إلى تفتيت الهوية الجامعة، عبر إذكاء الانقسامات الطائفية أو القبلية أو المناطقية، لتحويل الصراع من صراع مع الفساد والاستبداد إلى صراع داخلي يستنزف المجتمع ويُشتّته، ويُبقي النظام في موقع الضامن للاستقرار.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٠٧) ومسلم (١٠٠٩).

(٢) ورحم الله الشيخ أبو الحسن الندوي الذي تناول هذه الفكرة في كتابه: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟».

وتُستكمل هذه المنظومة بنشر ثقافة اليأس واللامبالاة، عبر تعميم عبارات من قبيل: لا فائدة، والجميع فاسد، والتغيير مستحيل؛ حتى يفقد الناس ثقتهم بإمكانية الإصلاح، وينسحبوا من المجال العام، ويكتفوا بالبحث عن النجاة الفردية. وفي الوقت ذاته، يُطبَّع الفساد بوصفه ذكاءً اجتماعيًا أو وسيلة بقاء؛ فتتحول الرشوة والواسطة والتحايل إلى طرق مألوفة لقضاء الحاجات، ويُعاقَب النزيه ويُكافَأ الفاسد، حتى يفقد المجتمع حساسيته الأخلاقية الجماعية، ويصبح شريكًا غير مباشر في استمرار الخلل.

ولا يقل خطر الهندسة النفسية عبر الإعلام عن سائر أدوات الإخضاع، إذ يُغرق الفضاء العام بمحتوى تافه ومنحط في كثير من الأحيان، ويُهمَّش الخطاب الجاد، ويُسفَّه العلماء والمثقفون، وتُصنع الرموز من الفراغ؛ فتُعاد صياغة الاهتمامات والأولويات، ويصبح الوعي الجمعي هشًا وسهل التوجيه. وحين يصل الإنسان إلى مرحلة يقتنع فيها أنّ الخضوع هو الطبيعي، وأن المقاومة عبث أو خيانة؛ تكون معركة الوعي قد حُسمت قبل أن تبدأ.

**أخطر ما يصيب الثقافة أن يتحول الخطأ إلى طبيعي، وأن يفقد المجتمع حساسيته تجاه الانحراف؛ وهذا الخلل يمهّد للطغاة ليفرضوا سيطرتهم، لا بالقوة فحسب، بل بالاستناد إلى وعي مشوَّه يبرّر الظلم ويمنح الطغيان شرعيةً صامتة**

## طريق الإصلاح:

إنّ إصلاح المجتمعات لا يمكن أن يكون مجرّد إجراءات اقتصادية أو إدارية معزولة، ولا قفزًا متعجلاً على الواقع، بل هو مسار طويل ومعقّد، تبدأ ركائزه بإصلاح الثقافة ذاتها، لا بمعنى محوها أو القطيعة معها، بل بتنقيتها وتحريرها، وإعادة وصلها بقيمها الأصيلة، والتمييز الواعي بين الثابت القيمي والموروث القابل للنقد، فالثقافة الحيّة هي التي تملك القدرة على المراجعة والتجدد، لا تلك التي تتحصن ضد السؤال.

وتتطلب استعادة الوعي الثقافي تعليمًا يزرع التفكير النقدي منذ الصغر، ويُنمّي القدرة على الفهم والمساءلة لا الحفظ والتلقين، كما تتطلب قدوات حية تُجسّد القيم في الواقع لا في الخطاب فقط، وإعلامًا صادقًا يوجّه ولا يضلّل، ويكشف كلفة الانحراف بدل تجميله. كما أنّه لا غنىً عن قوانين وتشريعات تحمي السلوك النزيه وتُجفف منابع الفساد، وعن صبر وتدرّج يدركان أنّ التغيير الثقافي لا يحدث بين ليلة وضحاها، بل عبر تراكمات هادئة وعميقة.

وبعد تأسيس هذا المسار داخل المجتمعات، يبرز سؤالٌ موازٍ: كيف ننتقل من إصلاح مجتمعاتنا من الداخل إلى الإسهام في إصلاح عالمي واسع الأثر؟ إذ لا بدّ من التفكير بل العمل جديًا في طرح الإسلام على مستوى العالم بديلاً ثقافيًا شاملاً جديرًا بالتبنّي والاعتناق، بما يقدمه من إجابات راسخة، وحلول إيجابية نافعة، تضمن للمجتمعات الطمأنينة التي تنشدها، وتقدّم للبشر إجابات شافية للمسائل التي حيّرت المفكرين والفلاسفة، ولا تسبب لهم المصائب والكوارث التي قدّمتها لهم النظريات والأفكار الوضعية، وتضعهم فوقها على طريق النجاة في الآخرة.

في النهاية، ليست الثقافة المجتمعية بريئة دائمًا، لكنّها ليست عدوًا في ذاتها، إنّها ساحة الصراع الأعمق داخل الأمة وخارجها، ومَن يكسبها يكسب المستقبل. وحين تُوجَّه الثقافة توجيهًا واعيًا، ويُستثمر ما فيها من إيجابيات، وتُصحح انحرافاتها؛ تصبح أعظم رافعة لبناء مجتمع مترابط منتج وقادر على النهوض وأقدرَ من ذلك على تقديم معنىً للعالم في ظلّ تخبّطه وانحداره نحو الحضيض. أمّا حين تُترك الثقافة نهبًا للتزييف، والتقديس الأعمى، والهندسة القسرية، فإنّها تتحول إلى أخطر آلية لتعطيل التقدم، باسم العادة، وباسم الطبيعي، وباسم ما اعتاده الناس.

**حين تُستعاد الثقافة بوصفها وعيًا حيًّا لا تقليدًا أعمى؛ تتحول إلى رافعة إصلاح، ويصبح التغيير مسارًا تراكميًا هادئًا، يبني الإنسان قبل أن يبني الدولة**

# تاريخ نضال الشعب السوري ضد نظام البعث

م. حسام طرشة (*)

**على مدى أكثر من ستة عقود، واجه السوريون نظام البعث بأشكالٍ متعدّدة من المقاومة: احتجاجاتٍ مدنية، وجهودٍ علمائية ودعوية، ومعارضةٍ سياسية، ثم صداماتٍ مسلّحة انتهت بثورةٍ عامة. يتتبّع هذا المقال تطوّر هذه المسارات عبر محطّاتٍ مفصلية من ١٩٦٣م حتى ٢٠٢٤م، ويبيّن كيف ظلّ المجتمع يحتفظ بقدرته على المقاومة رغم القمع والنهج الطائفي وسياسات الإخضاع، في قراءةٍ تاريخيةٍ تحليليةٍ لمسار الجهاد الطويل الذي انتهى بسقوط النظام.**

«لقد ألقيتُ سيفًا من خشب، وأمسكتُ بسيفٍ من حديد»، كلماته لا تفارق مخيّلتي، قالها البطل والصديق حسن الخلف رحمه الله وهو يروي قصته مع حزب البعث، كان من أعضائه العاملين، ومن قادات «شبيبة الثورة»[1] على مستوى الوطن العربي، قبل أن يكتشف الحقيقة ويغير طريقه ويلتحق بكلية الشريعة، ويمضي للدعوة إلى الله وبيان انحراف الحزب وفساده رغم التضييق والملاحقة، حتى استدعته المخابرات ليموت في المعتقل ويُسلّم لأهله قبل الثورة ببضع سنين، تقبله الله في الشهداء.

لقد شهدت سوريا على مدى أكثر من ستة عقود واحدة من أطول تجارب النضال الشعبي ضد نظام استبدادي في التاريخ المعاصر، ورغم القمع الشديد لم يستسلم السوريون يومًا؛ إذ شهدت البلاد موجات متتالية من المقاومة والاحتجاج على مدى عقود من الزمن، تنوعت أشكالها وأساليبها، من المظاهرات السلمية إلى الانتفاضات المسلحة، ومن المقاومة الثقافية والفكرية إلى العصيان المدني.

ومع أنّ النظام نجح مرارًا في قمع هذه الموجات، إلا أنّ جذوة النضال ظلت متّقدة في النفوس، حتى

(*) مهندس مدني، مهتم بالعلوم الشرعية والسياسية والاجتماعية.

(١) منظمة تابعة لحزب البعث، تعمل على ضم الشباب وتربيتهم تربية حزبية على مبادئ وأهداف حزب البعث.

تكلّلت بإسقاط نظام البعث بعد ثورة شعبية عامة استمرت قرابة أربعة عشر عامًا.

## تعدد مسارات النضال ضد نظام البعث:

توزع النضال ضد النظام على كافة فئات الشعب، وكثيرًا ما تداخلت الجهود لتشكل جبهة مقاومة واسعة:

### ١. النضال الشعبي والمدني:

تمثل هذا المسار في تحرك عموم الشعب عبر المظاهرات والإضرابات التي اندلعت في المدن الكبرى من منتصف الستينيات وبلغ ذروته الأولى في الثمانينيات، لا سيما نقابات المحامين والأطباء والمهندسين، وكذلك أضرب قطاع من التجار. كان الحراك تعبيرًا عن رفض شعبي واسع لتوجه الحزب المنحرف وسياساته القمعية، حيث كانت الأحداث تندلع بين الحين والآخر بسبب استفزاز البعثيين للمجتمع، ورفض الناس لسلوك الحزبيين وأفكارهم.

وقد كان للمرأة دور محوري في هذا النضال الشعبي، لم يقتصر على الدعم، بل كانت عنصرًا فاعلاً في الميدان؛ ففي انتفاضات ١٩٧٦–١٩٨٠م كان عدد من النساء يقمن بتهريب المنشورات ونقل الأخبار بين الأحياء، مستفيدات من قلة المراقبة عليهن مقارنة بالرجال، وفي إضراب دمشق عام ١٩٨٠م، قادت نساء حي الميدان مسيرات نسائية جريئة رفعن خلالها لافتات تسأل عن مصير المعتقلين.

### ٢. المقاومة الدينية ودور العلماء:

شكلت المؤسسة الدينية ممثلة بعدد من المشايخ والعلماء جبهة مقاومة دينية أخلاقية ضد النظام، من خلال الفتاوى والخطب والبيانات، والجهود الدعوية والتوعوية للجماهير.

تحولت المساجد إلى مراكز تنظيم للنضال، كجامع السلطان في دمشق وجامع الروضة في حلب وغيرهما، حيث كانت تُنظم منها الفعاليات وتُوزع المنشورات.

وكان لزوجات العلماء دور في الحفاظ على الوعي الديني المقاوم، حيث كنّ يدرن حلقات تدريس سرية للفتيات، ويحفظن الخطب التي منع تداولها. ومن الأمثلة البارزة والدة الشيخ سعيد حوّا، التي استمرت في إلقاء الدروس الدينية في منزلها بحماة حتى اعتقالها عام ١٩٨١م.

وبعد خفوت صوت المعارضة بسبب البطش الشديد بقي لعدد من العلماء والدعاة الصادقين دور مهم في التربية والتعليم والتوعية وبث الوعي بأفكار نظام البعث والتحذير منها، وتثبيت الناس على دينهم، وقد اتسمت كثير من أنشطتهم بالسرية بسبب الملاحقات الأمنية المكثفة، وتعرض العديد منهم للسجن والاعتقال والتحقيق.

وبعد انطلاق الثورة عام ٢٠١١م أعلنت العديد من المؤسسات الدعوية والعلمائية عن نفسها، وتأسست أخرى، وانطلقت بالعمل في الدعوة إلى الله تعالى والتعليم الشرعي في الأوساط الشعبية والعسكرية والتعليمية والقضائية، وتخصص بعضها في إصدار البحوث والفتاوى في نوازل الثورة ومقاومة النظام حتى بلغت العشرات، وكان لعدد من الفصائل العسكرية الكبرى مكاتب شرعية عملت في هذا المجال كذلك.

إلى أن توجت هذه الجهود بتأسيس المجلس الإسلامي السوري عام ٢٠١٤م، الذي جمع كبرى هذه المؤسسات، وتولى دورًا مهمًا في التوعية الشعبية وقيادة الجهود الدينية من خلال الفتاوى والإشراف على عدد من الجهود الدعوية، والتصدي لمحاولات الالتفاف على مكتسبات الثورة بالبيانات والمواثيق الخاصة، وانبثقت عنه عدة مؤسسات في هذا المجال.

> **بعد خفوت صوت المعارضة بسبب البطش الشديد بقي لعدد من العلماء والدعاة الصادقين دور مهم في التربية والتعليم والتوعية وبث الوعي بأفكار نظام البعث والتحذير منها، وتثبيت الناس على دينهم، وقد اتسمت كثير من أنشطتهم بالسرية بسبب الملاحقات الأمنية المكثفة، وتعرض العديد منهم للسجن والاعتقال والتحقيق**

### ٣. المقاومة السياسية والأحزاب المعارضة:

عملت الجماعات والأحزاب على مقاومة النظام سياسيًا من الداخل عبر التنظيم السري والعمل الفكري، وقد شكل الإخوان المسلمون[١] القوة المعارضة الإسلامية الأبرز بما لهم من دور تنظيمي واسع، وأثر كبير في الشارع. كذلك كان لبعض

(١) وكان على رأس الجماعة في ذلك الوقت الدكتور مصطفى السباعي الذي توفي عام ١٩٦٤م، وخلفه في منصب المراقب العام الأستاذ عصام العطار.

الأحزاب اليسارية كـ «الحزب الشيوعي - المكتب السياسي»، و«حزب العمل الشيوعي» نشاطات سياسية[١]، وإن كان تأثيرها المجتمعي أقل بكثير من الأنشطة الإسلامية.

ولا يُنسى كذلك أنّ ظهور منتديات «الربيع الدمشقي» في مطلع الألفية الجديدة مثّل شكلاً من أشكال المقاومة الفكرية والسياسية، شاركت فيها شخصيات عديدة.

### ٤. العمليات العسكرية، والانتفاضات المسلحة:

أول تجسيد لهذا النوع من النضال كان من قبل تنظيم «الطليعة المقاتلة»، وما تلاه من انتفاضات شعبية مسلحة وصولاً إلى الثورة السورية ٢٠١١م.

كانت الطليعة المقاتلة تنظيمًا سريًا مستقلاً[٢]، ركزت على تنفيذ عمليات اغتيال منتقاة استهدفت كبار شخصيات النظام البارزة، وتوزيع المنشورات الفكرية، وقد تركت بصمات موجعة على النظام خلال بضع سنوات، وأفقدته العديد من الشخصيات.

ثم كانت حوادث حماة عام ١٩٨٢م التي مثلت ذروة النضال المسلح؛ حيث هب آلاف المقاتلين الشعبيين للدفاع عن المدينة بعد حصارها من النظام بقواته المسلحة لملاحقة وقمع الحراك ضده.

وأخيرًا كانت الثورة السورية الكُبرى، التي انطلقت عام ٢٠١١م وأثمرت بعد جهاد وكفاح ونضال دام ١٤ عامًا إسقاط نظام البعث وحكم آل الأسد.

### إرهاصات النضال ضد البعث (١٩٤٠-١٩٦٣م):

تأسس الحزب عام ١٩٤٧م، ومنذ البداية واجه صعوده معارضة من الشعب وقواه السياسية التقليدية، التي رأت في فكره محاربة للهوية الإسلامية للمجتمع السوري، وفي توجهاته الاشتراكية تهديدًا لمصالحه الاقتصادية.

هذه المعارضة المبكرة لأيديولوجية البعث شكلت البذور الأولى للنضال الشعبي الذي سيتصاعد لاحقًا مع تحول الحزب من حامل لمشروع (قومي تحرري) إلى أداة للإفساد والقمع والاستبداد.

### الانقلاب والاستيلاء على السلطة والمقاومة المبكرة (١٩٦٣-١٩٦٦م):

فجر الثامن من آذار/مارس ١٩٦٣م استولى حزب البعث على السلطة من خلال انقلاب عسكري قادته «اللجنة العسكرية» السرية داخل الحزب. وعلى الرغم من رفع شعارات قومية وتحررية، إلا أنه سرعان ما كشف عن وجهه الاستبدادي من خلال سلسلة من الإجراءات القمعية التي استهدفت تركيز السلطة بيد الحزب والقضاء على أي معارضة.

ففور استيلائه على السلطة أعلن حالة الطوارئ التي منحته صلاحيات استثنائية لقمع المعارضة دون محاكمة، كما حظر الأحزاب السياسية، وشنّ حملة تطهير واسعة في مؤسسات الدولة، خاصة الجيش، لإقصاء من لا ينتمي للحزب أو لا يدين بالولاء له[٣].

لم يقف الشعب مكتوف الأيدي أمام هذه الممارسات، فقد شهدت سوريا خلال السنوات الأولى من حكم البعث موجة من الاحتجاجات والمظاهرات المناهضة للنظام، خاصة في المدن ذات الطابع المحافظ مثل حماة وحمص وحلب.

في عام ١٩٦٤م وقعت حادثة مدرسة عثمان الحوراني في حماة، حيث كتب طالب على لوح المدرسة: «لا حكم إلا للبعث»، ليرد عليه آخر: «لا حكم إلا لله» تطورت الأمور لاحتجاجات طلابية، تصدى لها المحافظ عبدالحليم خدّام بالرصاص؛ ما تسبب بقتل بعض الطلاب، فخرجت مظاهرات عارمة، ووقع إضراب عام في المدينة، واعتصام بجامع السلطان، فتم تطويق المساجد بالدبابات وقصفت المناطق وأصر «خدام» على الحل الأمني، لتنتهي الحوادث بقصف مسجد السلطان، وهي أول حادثة من نوعها في التاريخ السوري، فكان إضراب حماة[٤] أول مواجهة شعبية كبرى ضدّ النظام البعثي، وقد لعبت المساجد دورًا محوريًا في تنظيمه؛ حيث كانت المنابر الوحيدة المتبقية للتعبير عن المعارضة بعد إغلاق كافة المنافذ السياسية، كما مثّلت هذه الحادثة بداية نمط من القمع الدموي الذي سيميز تعامل نظام البعث مع أي احتجاج شعبي لاحقًا.

(١) كان الحزب الشيوعي بقيادة رياض التّرك، وحزب العمل الشيوعي بقيادة ميشيل كيلو.
(٢) وينسب تأسيسها للشيخ مروان حديد رحمه الله.
(٣) للاستزادة عن تاريخ حزب البعث، تراجع مقالة الكاتب في العدد الرابع والثلاثين بعنوان: «تاريخ حزب البعث في سوريا: الاستيلاء والأفول».
(٤) برنامج: شاهد على العصر، عدنان سعد الدين، على موقع الجزيرة، وشهادة أمين الحافظ على نفس البرنامج على الجزيرة، ومذكّرات أكرم حوراني.

انتقلت الاحتجاجات إلى مدن أخرى كدمشق وحلب واللاذقية، وحصلت إضرابات جماعية، وأغلقت المحال التجارية.

**فور استيلاء حزب البعث على السلطة أعلن حالة الطوارئ التي منحته صلاحيات استثنائية لقمع المعارضة دون محاكمة، كما حظر الأحزاب السياسية، وشنّ حملة تطهير واسعة في مؤسسات الدولة، خاصة الجيش، لإقصاء من لا ينتمي للحزب أو لا يدين بالولاء له**

## الصراع البعثي على السلطة والمقاومة المتنامية (١٩٦٦-١٩٧٠م):

شهدت الفترة بين عامي (١٩٦٦-١٩٧٠م) صراعًا محمومًا على السلطة داخل حزب البعث، فقد وقع انقلاب داخلي في ٢٣ شباط/فبراير ١٩٦٦م قاده صلاح جديد وأطاح بالقيادة التاريخية للحزب، مثّل الانقلاب تحولاً جذريًا في مسار الحزب، حيث سيطر عليه الجناح العسكري الذي تبنّى سياسات أكثر تطرّفًا، وأهمها: العمل على تسريع وتيرة التأميم والإصلاح الزراعي؛ ممّا أثار استياء الطبقات الوسطى والتجار وملاك الأراضي[١].

رافق الصراعات الداخلية لحزب البعث وأثرها على البلاد تصاعد حركة المعارضة والمقاومة؛ فقد تصاعدت الحركات الطلابية في الجامعات ونظّمت إضرابات واعتصامات احتجاجًا على القمع السياسي وتدهور الأوضاع الاقتصادية، كما نشطت النقابات المهنية -خاصة نقابات المحامين والأطباء والمهندسين- في التعبير عن معارضتها لسياسات نظام البعث.

على الصعيد الديني، بدأت تتشكّل نواة المعارضة الإسلامية المنظمة التي استقطبت الشباب المتديّن المستاء من السياسات العلمانية المتطرفة للبعث.

وعلى الرغم من أن العلماء السوريين لم يشكّلوا معارضة سياسية منظمة بالمعنى الحركي، إلا أنّ العقدين السادس والسابع من القرن العشرين شهدا بروز فضاء ديني اجتماعي خارج هيمنة حزب البعث، أسهم في إيجاد مناخ اعترض فيه جزء من التيار الإسلامي على السياسات العلمانية المتشددة. وأظهر الشباب المتديّن في المدن الكبرى استعدادًا أكبر للانخراط في النشاط الديني، بسبب الدور البارز الذي لعبه بعض العلماء الإصلاحيين، مثل الشيخ محمد الحامد والشيخ سعيد حوا في حماة، والشيخ عبد الكريم الرفاعي والشيخ حسن حبنّكة الميداني في دمشق، والشيخ عصام العطار في مسجد جامعة دمشق، والشيخ طاهر خير الله في جامع الروضة بحلب، والشيخ عبد الله ناصح علوان في جامع عمر بن عبد العزيز؛ حيث اضطلع الشيخان الأخيران بدورٍ بارز في الخطابة والتحريض. وقد أسس عدد من هؤلاء المشايخ مؤسساتٍ تعليمية دينية مستقلة ودوائر تأثير شعبية جذبت أعدادًا متزايدة من الشباب.

كما أوجد نشاط هؤلاء العلماء شبكات دينية واجتماعية موازية لخطاب النظام، ووفّر بيئة مناسبة لصعود الحركات الإسلامية الأكثر تنظيمًا. ويرى كلٌّ من توماس بيريت ورافاييل لوفيفر أنّ هذا التشكل الجديد في الحياة الدينية كان جزءًا من الخلفية التاريخية التي صعدت فيها المعارضة الإسلامية المنظمة[٢].

في المقابل، لجأ النظام إلى تشديد القمع، وتوسعت صلاحيات المحاكم العسكرية والاستثنائية،

(١) التأميم: سياسة اقتصادية تقضي بنقل ملكية المؤسسات الخاصة الكبرى (الصناعية، التجارية، المصرفية) إلى الدولة، والإصلاح الزراعي: مجموعة تشريعات تهدف إلى إعادة توزيع الأراضي الزراعية عبر تحديد سقف الملكية ومصادرة ما زاد عليه لصالح الدولة أو الفلاحين. وقد بدأ تطبيق هاتين السياستين في سورية خلال فترة الوحدة مع مصر (١٩٥٨-١٩٦١) في ظل التوجه الاشتراكي لجمال عبد الناصر، ثم توسّع تطبيقهما بعد انقلاب ١٩٦٦م الذي قاده الجناح العسكري الراديكالي في حزب البعث، حيث جرى تسريع وتوسيع عمليات المصادرة وتحديد الملكية. وقد أسهم ذلك في إضعاف كبار ملاك الأراضي والقطاع الخاص، وأثار استياءً واسعاً في أوساط الطبقات الوسطى والتجارية، ولا سيما في المدن التقليدية مثل دمشق، وحلب، وحماة، وغيرها. وقد أدت هذه الإجراءات إلى تجريد النخب الاقتصادية التقليدية من قوتها ونفوذها، وإضعاف القطاع الخاص، وسيطرة الدولة الشمولية على الاقتصاد، الأمر الذي أدى إلى تحويل شركات سورية اقتصادية كان لنجاحها صيت عربي وعالمي، إلى «سكراب» بشطبة قلم. للاستزادة: «مقالات: هكذا ابتلع الأسد أملاك السوريين... تشريعات لم تكن لتسقط» (سلسلة من ٣ مقالات)، للكاتبة هبة الكل، موقع مجلة المجلة.

(٢) ينظر كتاب: الدين والدولة في سوريا: علماء السنة من الانقلاب إلى الثورة، توماس بيريه، Thomas Pierret, Religion and State in Syria: The Sunni Ulama from Coup to Revolution, Cambridge University Press, 2013. - الذي يناقش شبكات العلماء السنة ودورهم في تشكيل فضاء ديني مستقل. ويتناول بالتفصيل كلاً من الشيخين عبد الكريم الرفاعي والشيخ حسن حبنّكة ودورهما في تكوين بيئات دينية تعبويّة خارج سيطرة الدولة.

# تصاعد الرفض الشعبي للبعث مع تطور أساليبه في الظلم والبطش

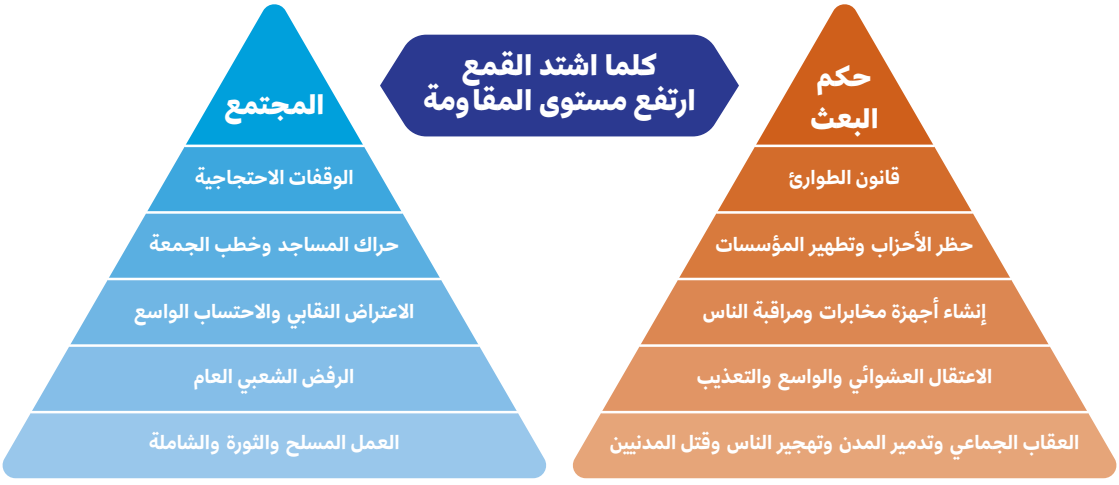


وازدادت حملات الاعتقال التعسفي، وتفشت ممارسات التعذيب في السجون والمعتقلات. كما تمّ تجنيد شبكة واسعة من المخبرين والعملاء لمراقبة المواطنين والإبلاغ عن أيّ نشاط معارض.

## ترسيخ الديكتاتورية ومقاومة السبعينيات (١٩٧٠-١٩٧٩م):

مثّل الانقلاب المسمَّى بـ«الحركة التصحيحية» الذي قاده حافظ الأسد في ١٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٠م نقطة تحوّل في تاريخ سوريا المعاصر؛ فقد أطاح الأسد برفاقه وأسس نظامًا جمع بين الشمولية الأيديولوجية لحزب البعث والطابع العسكري الأمني للدولة، مع تركيز غير مسبوق للسلطة بيد شخص واحد.

سعى الأسد إلى إضفاء شرعية دستورية على حكمه، فأصدر دستورًا جديدًا عام ١٩٧٣م كرّس فيه هيمنة حزب البعث من خلال المادة الثامنة التي نصّت على أن «حزب البعث العربي الاشتراكي هو الحزب القائد للدولة والمجتمع»، كما أنشأ «الجبهة الوطنية التقدمية» التي ضمت أحزابًا صغيرة موالية، في محاولة لإعطاء انطباع بوجود تعددية سياسية.

كانت معركة الدستور عام ١٩٧٣م واحدة من أكبر المعارك التي خاضتها قوى الشعب في السنوات الأولى لاستيلاء حافظ الأسد على الحكم، فقد أثار الدستور الذي فرضه استياءً شديدًا بما رافقه من ترسيخ لدكتاتورية الأسد المطلقة على الدولة والمجتمع، ومحاولة تبديل الهوية الإسلامية.

لكن الجانب الأخطر في نظام الأسد كان تحويله سورية إلى دولة مخابراتية بامتياز؛ حيث أنشأ شبكة معقدة من أجهزة الأمن والمخابرات المتنافسة (المخابرات العسكرية، الأمن السياسي، المخابرات الجوية، أمن الدولة)، منحها صلاحيات مطلقة للمراقبة والاعتقال والتعذيب، وقد أدى هذا النظام الأمني إلى نشر الخوف والرعب بين المواطنين، وخلق ثقافة من الصمت والخضوع.

وعلى الرغم من القمع المنظّم لم تتوقف المقاومة الشعبية؛ فقد شهد عام ١٩٧٣م موجة من الاحتجاجات ضد الدستور الجديد، خاصة المادة التي لم تشترط أن يكون رئيس الجمهورية مسلمًا، وحذف المادة التي تنص على أن الفقه الإسلامي هو مصدر رئيسي للتشريع.

وقد أصدر عدد من العلماء عدة بيانات من حلب وحماة وحمص، بدأها الشيخ سعيد حوى، وكان للشيخين محمد الشامي[١] والشيخ محمد النبهان جهد بارز فيها، وتكللت الجهود بتكفل الشيخ حسن حبنكة بتوقيع ٧٠ من علماء سورية، ثم وقعه الكثير من أهل العلم والدعوة، يتضمن مناقشة للدستور وعواره وعيوبه، فانتشرت البيانات عبر البريد ووزعت على خطباء الجوامع، وتحدث بها الناس، وتحمس الناصريون والاشتراكيون وأصدروا بينات كذلك[٢].

ثم قاد الشيخ حسن حبنكة الميداني في دمشق القوى المنتفضة ضد الدستور، وفي حماة قاد كل من الشيخ مروان حديد والشيخ سعيد حوّى الاحتجاجات، وأعلن الشيخ عبد الله علوان وطاهر خير الله الاحتجاج على الدستور في حلب، والشيخ محمد علي مشعل في حمص، كما كان للمشايخ عبد العزيز عيون السود والشيخ سعد مراد وغيرهم جهود في ذلك.

وترافق ذلك بحراك شعبي بالمظاهرات والاعتصامات والتي قوبلت بالاعتقالات والقتل، وأسفر الأمر في نهاية المطاف إلى رضوخ حافظ أسد لتراجع جزئي في تعديل بعض مواد الدستور، دون تعديل تلك المادتين، كما أصدر ثمانون من رجال الدين العلويين بيانًا رسميًا يقولون فيه أنهم فرقة من فرق الإسلام وأن كتابهم هو القرآن، وأنهم مسلمون شيعة[٣]، وصادق على بيانهم موسى الصدر رئيس المجلس الشيعي الأعلى في لبنان[٤].

رغم ذلك استمر القمع والاعتقال والتعذيب، مما اضطر قطاعات من المنتفضين والمحتجين إلى التسلح والعمل السري.

في عام ١٩٧٦م بدأت موجة من عمليات الاغتيال ضدّ شخصيات بارزة في النظام سياسية وعسكرية، معظمهم من الطائفة العلوية[٥] في دمشق وحلب وحماة، ضمن عمليات «الطليعة المقاتلة».

ردّ النظام بحملة قمع غير مسبوقة، شملت اعتقالات جماعية واسعة، وعمليات إعدام ميدانية، وتعذيب منهجي في السجون، كما لجأ إلى سياسة العقاب الجماعي؛ حيث تم استهداف عائلات وأقارب المشتبه بهم، وأحيانًا أحياءً ومدنًا بأكملها.

وقد كان لعلماء حلب حراكٌ في غاية الأهمية، ومن ذلك البيان التاريخي الذي أصدروه عام (١٩٧٩م) يحرّمون فيه التعاون مع أجهزة الأمن ويدعون إلى العصيان المدني.

**سعى الأسد إلى إضفاء شرعية دستورية على حكمه، فأصدر دستورًا جديدًا عام ١٩٧٣م كرّس فيه هيمنة حزب البعث من خلال المادة الثامنة التي نصّت على أن «حزب البعث العربي الاشتراكي هو الحزب القائد للدولة والمجتمع»، كما أنشأ «الجبهة الوطنية التقدمية» التي ضمت أحزابًا صغيرة موالية، في محاولة لإعطاء انطباع بوجود تعددية سياسية**

هذه المواجهة المتصاعدة مهّدت الطريق لمرحلة أكثر دموية في الثمانينيات تركت ندوبًا عميقة في الذاكرة الجمعية للسوريين، ستبلغ ذروتها في مجزرة حماة عام ١٩٨٢م.

### ذروة المواجهة - الثمانينيات وانتفاضة حماة (١٩٨٠-١٩٨٢م):

بدأت هذه المرحلة بحادثة «مدرسة المدفعية» في حلب في ١٦ حزيران/يونيو ١٩٧٩م، حيث قام إبراهيم اليوسف[٦] أحد المدرسين فيها بجمع الطلاب الضباط في قاعة الطعام، ثم سمح لمسلحين

(١) شهادة د. محمد صهيب الشامي على تلفزيون العربي في ثلاثة أجزاء، متوفرة على منصة يوتيوب.

(٢) ينظر: مقال «معركة الإسلام والدستور في سورية وتونس»، سيد أحمد بن محمد السيد، موقع رابطة أدباء الشام، ١٥ تموز ٢٠٢٢م. ومقال «المؤسسة العسكرية في المواثيق الدستورية.. مضامين نحو المستقبل»، مركز عمران للدراسات الاستراتيجية. وشهادة د. محمد صهيب الشامي على تلفزيون العربي في ثلاثة أجزاء، على منصة يوتيوب.

(٣) المكتبة الإسلامية العلوية: https://alawiyoun.net/ar/node/1422

(٤) التحالف الشيعي النصيري، مقال للشيخ محمد سرور زين العابدين رحمه الله، على موقع الشيخ: https://www.surour.net/

(٥) سيرة الجهادية الشامية في السبعينات والثمانينات، «حسام جزماتي»، على موقع تلفزيون سوريا: https://www.syria.tv/. و: سقوط أحكام وقواعد حماه، مقال لمركز كارنيغي يذكر فيه المعلومة: https://carnegieendowment.org/ar/middle-east/diwan/2016/09/no-more-hama-rules.

(٦) ينتمي اليوسف لإحدى خلايا «الطليعة المقاتلة» وتذكر بعض المصادر أن قيادة الطليعة لم توافق على العملية لمخالفتها لنهجها في العمل السري الانتقائي، لكن الظروف الأمنية وصعوبة التحرك قد ساهمت في عدم وصول هذه الأوامر بشكل صحيح لليوسف.

بدخول المدرسة وإطلاق النار عليهم، مما أدى إلى مقتل قرابة ٨٠ ضابطًا معظمهم من الطائفة العلوية، وفق المصادر المختلفة.

شكّلت هذه الحادثة نقطة تحوّل في طبيعة الصراع، فانفجرت بعدها دورةٌ من العنف والانتقام لم تتوقف إلا بعد سنوات، وقد كانت ممارساتُ نظام البعث -بما أفضت إليه من استقطاب طائفي عبر إعادة تشكيل مؤسسات الدولة على أسس طائفية، ولا سيما المؤسسة العسكرية التي غلبت عليها هيمنةُ الأقليات، مع قمع واستهداف واضح للقوى السنّية- عاملًا رئيسًا في تغذية هذا الانفجار.

في آذار/مارس ١٩٨٠م، وتحديدًا في الذكرى السابعة عشرة لانقلاب البعث، شهدت سورية موجة غير مسبوقة من الإضرابات والاحتجاجات الشعبية، أُصيبت معظم المدن السورية بالشلل التامّ، حيث أغلقت المحالّ التجارية أبوابها، وتوقفت حركة المواصلات، وخرج عشرات الآلاف في مظاهرات حاشدة مناهضة للنظام. وقد ميز هذه الموجة من الاحتجاجات اتّساع قاعدتها الاجتماعية، كما تجاوزت المطالب الدينية إلى مطالب سياسية واقتصادية واجتماعية، كإلغاء حالة الطوارئ، وإطلاق الحريات السياسية، وتحسين الأوضاع المعيشية.

واجه النظام هذه الاحتجاجات بقوة غير مسبوقة؛ حيث أرسل الآلاف من الجنود المدعومين بالدبابات والمروحيات إلى المدن المنتفضة، خاصة حلب التي شهدت معارك شوارع حقيقية، أسفرت حملة القمع عن مقتل المئات من المتظاهرين، واعتقال الآلاف، وتدمير أحياء بأكملها في بعض المدن.

وفي ٢٦ حزيران/يونيو ١٩٨٠م نجا حافظ الأسد من محاولة اغتيال في دمشق[١]، حيث ألقى مهاجمون قنبلتين عليه، أثارت محاولة الاغتيال هذه غضب النظام وفتحت شهيته للانتقام؛ ففي اليوم التالي -٢٧ حزيران/يونيو- قامت سرايا الدفاع بقيادة رفعت الأسد شقيق الرئيس بارتكاب مجزرة مروعة في سجن تدمر، حيث تم إعدام حوالي ١١٥٢ سجينًا سياسيًا معظمهم من الإسلاميين، في عملية انتقامية وحشية.

بعد أقل من شهر، أصدر النظام القانون رقم ٤٩ الذي نصّ على إعدام كل من ينتمي لجماعة الإخوان المسلمين[٢]، وقد طبق هذا القانون بأثر رجعي، ممّا أدى إلى إعدام المئات من المنتمين أو المتعاطفين مع الجماعة، بل كل من كان عليه سمات الالتزام الإسلامي، كما أدى إلى هجرة الآلاف إلى خارج البلاد.

استمرت المواجهات المسلحة بين النظام والمعارضة الإسلامية طوال عامي ١٩٨٠-١٩٨١م، مع تصاعد وتيرة العمليات المسلحة ضدّ رموز النظام، والرد القمعي العنيف من قبل الأجهزة الأمنية. وقد أدت هذه المواجهة المفتوحة إلى استنزاف كلا الطرفين، وتدهور الأوضاع الأمنية والاقتصادية في البلاد، بعد سنوات من الظلم والاستبداد التي مارسها نظام البعث.

ثم كانت حادثة الأزبكية[٣] أبرز الأحداث في تلك المرحلة؛ ففي ظهر يوم الأحد ٢٩ نوفمبر ١٩٨٢م انفجرت في منطقة الأزبكية في دمشق سيارة مفخخة مستهدفة شعبةَ التجنيد التي يجري فيها اجتماع عام لمسؤولي الشُّعَب في دمشق، أسفرت عن ٦٤ قتيلاً وجرح ١٧٥ آخرين. سارعت الأجهزة الأمنية إلى اتهام الإخوان المسلمين، وفي المقابل أصدرت جماعة الإخوان المسلمين بيانًا تدين فيه هذه المجزرة. واللافت أن جميع ما أصدرته السلطات في حينه لم يكن أكثر من روايات بلا أي أدلة.

استخدم النظام حادثة الأزبكية حجة لما وقع بعد من أحداث ومواجهات كان قد بيَّت الاستعداد لها، بلغت ذروتها في شباط/فبراير ١٩٨٢م مع اندلاع انتفاضة حماة، عندما حاصرت قوات الأمن بعض أحياء المدينة بحثًا عن مطلوبين أمنيًا، تطور الأمر سريعًا إلى مواجهات مسلحة، ثم إلى انتفاضة شعبية شاملة، حيث سيطر الثوار على أجزاء واسعة من المدينة، وأعلنوا تحريرها من سلطة النظام.

(١) نفذها أفراد من العسكريين السنة جندهم فرع الطليعة في حلب، على ثرى دمشق، أيمن شربجي، وينظر: خفايا عملية اغتيال حافظ الأسد قبل هلاكه، بودكاست الثورة، على يوتيوب: https://www.youtube.com/watch?v=R01ok28mblU

(٢) موقع اللجنة السورية لحقوق الإنسان: https://www.shrc.org/?p=7449

(٣) موسوعة سوريا السياسية، على يوتيوب: https://www.youtube.com/watch?v=u8mHVft9PVQ

ردّ النظام بعملية عسكرية واسعة النطاق استمرت ٢٧ يومًا، استخدم فيها كافة أنواع الأسلحة الثقيلة، ثم اقتحمت قوات بقيادة رفعت الأسد المدينة وارتكبت مجزرة مروعة. تم إعدام الآلاف من المدنيين بشكل جماعي، وتضاربت التقديرات حول عدد الضحايا، فبينما تحدثت مصادر النظام عن مقتل بضعة آلاف، قدرت منظمات حقوق الإنسان والقوى السورية المعارضة عددَ القتلى بين ٢٠ إلى ٤٠ ألف ضحية، معظمهم من المدنيين. كما أدت المجزرة إلى تشريد عشرات الآلاف من سكان المدينة، وإلى تدمير جزء كبير من نسيجها العمراني والتاريخي.

مثّلت مجزرة حماة نقطة تحوّل في تاريخ سورية المعاصر؛ حيث نجح النظام في كسر شوكة المعارضة بشكل شبه كامل، وفرض حالة من الرعب والصمت على المجتمع السوري لسنوات طويلة، كما أصبحت المجزرة رمزًا لوحشية النظام المطلقة، وللثمن الباهظ الذي يمكن أن يُدفع نتيجة أيّ تحدّ لسلطته.

**استمرت المواجهات المسلحة بين النظام والمعارضة الإسلامية طوال عامي ١٩٨٠-١٩٨١م، مع تصاعد وتيرة العمليات المسلحة ضدّ رموز النظام، والرد القمعي العنيف من قبل الأجهزة الأمنية. وقد أدت هذه المواجهة المفتوحة إلى استنزاف كلا الطرفين، وتدهور الأوضاع الأمنية والاقتصادية في البلاد، بعد سنوات من الظلم والاستبداد التي مارسها نظام البعث**

### المقاومة الصامتة (١٩٨٣-٢٠٠٠م):

أعقبت مجزرة حماة فرض سيطرة أمنية محكمة على المجتمع، مع توسع صلاحيات أجهزة المخابرات بالملاحقة والاعتقال والتعذيب، وتجنيد شبكة واسعة من المخبرين والعملاء لمراقبة المواطنين والإبلاغ عن أي نشاط مشبوه، مما أدى إلى عموم حالة من الصمت والخوف أرجاء البلاد. لكنّ هذا الصمت الظاهري أخفى وراءه أشكالاً متنوعة من المقاومة الصامتة التي استمرت طوال الثمانينيات والتسعينيات.

فقد تحولت المقاومة إلى أشكال أكثر سرية وغير مباشرة؛ حيث لجأ المثقفون والكتاب إلى استخدام الرمز والإيحاء في أعمالهم الأدبية والفنية للتعبير عن رفضهم للنظام، دون أن يعرّضوا أنفسهم للخطر المباشر.

كما ظهرت أشكال من المقاومة الثقافية من خلال النكات السياسية التي انتشرت في المجتمع، كانت تسخر من النظام ورموزه، وتفضح تناقضاته، وعلى الرغم من بساطتها، فقد شكّلت متنفّسًا للشعب، وأداة للحفاظ على الوعي النقدي في ظل القمع.

على الصعيد السياسي، استمرت بعض المجموعات المعارضة في العمل بشكل سري داخل سورية رغم المخاطر الكبيرة؛ فقد حافظت لجان حقوق الإنسان السرية على نشاطها في توثيق انتهاكات النظام، وتهريب المعلومات إلى المنظمات الدولية، كما استمرت بعض الخلايا السياسية المعارضة في التواصل سرًّا، وتوزيع المنشورات، وتنظيم لقاءات محدودة.

ولعب السوريون في المنفى دورًا محوريًّا خلال هذه الفترة، فقد شكّلوا تنظيمات وتجمعات في أوروبا والولايات المتحدة ودول الخليج، عملت على فضح انتهاكات النظام، والتواصل مع المنظمات الدولية، وإصدار الصحف والمجلات المعارضة.

ويمكن التمثيل على هذا النشاط بعدد من التجمعات، من بينها: «لجان الدفاع عن الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان في سورية» التي تأسست في باريس عام ١٩٨٩م[١]، و «المنظمة العربية لحقوق الإنسان - فرع سورية»[٢] التي نشطت في لندن، كما أصدر المعارضون في المنفى عددًا من الصحف والمجلات، مثل «المنار» و «النذير» و «الرائد»، التي كانت تُهرّب أحيانًا إلى داخل سورية.

كما شكّلت شهادات المعتقلين السياسيين الذين خرجوا من سجون النظام جانبًا مهمًا من توثيق المقاومة خلال هذه الفترة؛ فقد نشر عدد من المعتقلين السابقين مذكّراتهم وشهاداتهم عن تجاربهم في سجون النظام، مثل مصطفى خليفة في كتابه «القوقعة»، ومحمد سليم حماد في «سجن

(١) نبذة عن لجان الدفاع عن الحريات، على موقع الذاكرة السورية.
(٢) موقع المنظمة العربية لحقوق الإنسان: https://aohrarab.com/blog/543.

تدمر»، وفرج بيرقدار في «خيانات اللغة والصمت»، وهبة الدباغ في روايتها: «خمس دقائق فقط»، وكتاب «من تدمر إلى هارفرد» للطبيب براء السراج، الذي تميز بتوثيقه للمواجهات مع النظام حسب شهادات التدمريين، ولم يكن مجرد رواية حول أوضاع السجون. وقد ساهمت هذه الشهادات في كشف حجم الانتهاكات التي ارتكبها النظام، وفي الحفاظ على ذاكرة المقاومة.

إلى جانب المقاومة السياسية والثقافية ظهرت أشكال من المقاومة الاجتماعية والاقتصادية؛ فقد لجأ كثير من السوريين إلى الانسحاب من المجال العام، ورفض المشاركة في مؤسسات النظام وفعالياته، في شكل من أشكال العصيان المدني الصامت، كما انتشرت ظاهرة الاقتصاد الموازي والتهريب، كردّ فعل على سيطرة النظام على الاقتصاد وفساده.

## محاولات الإصلاح وربيع دمشق (٢٠٠٠-٢٠١٠م):

مع هلاك حافظ الأسد في ١٠ حزيران/ يونيو ٢٠٠٠م، وتولي ابنه بشار السلطة في العام نفسه، سادت أجواءٌ من التفاؤل الحذر؛ فقد أثار الرئيس "الشابّ"، الذي درس في بريطانيا وعاش زمنًا فيها، آمالاً بإمكانية إحداث إصلاحات سياسية واقتصادية تخفف من القبضة الأمنية وتفتح المجال أمام قدْر من الحريات، ممّا شجع المثقفين والناشطين على كسر حاجز الخوف والمطالبة بالإصلاح؛ فبدأ ما عُرف بظاهرة "ربيع دمشق"[١]، وهي فترة قصيرة من الانفتاح السياسي النسبي امتدت من صيف ٢٠٠٠ إلى خريف ٢٠٠١م.

خلال هذه الفترة ظهرت عشرات المنتديات الثقافية والسياسية في مختلف المدن مناقشة قضايا الإصلاح السياسي والاقتصادي والثقافي، من أبرزها "منتدى الأتاسي" الذي أسسته سهير الأتاسي في دمشق، و"منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي"، و"منتدى رياض سيف" الذي أسسه النائب المستقل رياض سيف.

كما شهدت هذه الفترة إصدار عدد من البيانات والوثائق المطالبة بالإصلاح، أبرزها "بيان المثقفين الـ ٩٩" الذي وقعه ٩٩ مثقفًا ومفكرًا سوريًا في أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠م، وطالب بإنهاء حالة الطوارئ، وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين، وإقرار التعددية السياسية، تلاه "بيان الألف" في كانون الثاني/يناير ٢٠٠١م، الذي وقّعه أكثر من ألف مثقف وناشط، وتضمّن مطالب أكثر تفصيلاً بالإصلاح السياسي والاقتصادي والقانوني.

استجاب النظام في البداية بقدر من التسامح، حيث أطلق سراح مئات المعتقلين السياسيين، وسمح بهامش محدود من حرية التعبير. لكنْ سرعان ما عاد إلى أساليبه القمعية، خاصة مع اتّساع نطاق المطالب وتجاوزها للخطوط الحمراء التي وضعها.

في خريف ٢٠٠١م بدأت حملة قمع واسعة ضدّ نشطاء "ربيع دمشق"، كما تمّ إغلاق المنتديات، ومنع التجمعات، والعودة إلى سياسة القبضة الأمنية.

وعلى الرغم من هذه النكسة لم تتوقف محاولات الإصلاح والمقاومة السلمية؛ ففي تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٥م تم الإعلان عن تأسيس "إعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي"[٢]، وهو تحالف واسع ضمّ أحزابًا وشخصيات معارضة من مختلف التيارات السياسية، من ليبراليين وإسلاميين، ويساريين، وقوميين، وأكراد.

طالب "إعلان دمشق" بإقامة نظام ديمقراطي في سورية، وإلغاء حالة الطوارئ والأحكام العرفية، وإطلاق الحريات العامة، وحلّ المشكلة الكردية حلاً عادلاً. وقد شكّل هذا التحالف أول محاولة جدية لتوحيد صفوف المعارضة السورية منذ عقود.

ردّ النظام بحملة اعتقالات واسعة طالت قيادات "إعلان دمشق"، خاصة بعد انعقاد المجلس الوطني للتحالف في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٧م[٣]، وحكم عليهم بالسجن[٤].

إلى جانب المقاومة السياسية المنظمة شهدت هذه الفترة ظهور أشكال جديدة من المقاومة، خاصة مع انتشار الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي،

(١) ربيع دمشق.. «العقد الضائع» الذي سبق الثورة السورية، مقال على موقع الجزيرة.

(٢) إعلان دمشق القصة الكاملة - جورج صبرة، العربي الجديد: www.alaraby.co.uk/opinion.

(٣) سيرة رياض سيف وشهادته للتاريخ.. وقائع سورية، عمر كوش، العربي الجديد. واعتقال وليد البني، على موقع الذاكرة السورية: https://syrianmemory.org/archive/figures/5f182d95245fef0001ec71e5

(٤) اعتقالات في أعضاء المؤتمر، موقع العربية، https://www.alarabiya.net/articles/2007%2F12%2F15%2F42958

فقد برز جيل جديد من المدوّنين والناشطين الإلكترونيين الذين استخدموا الفضاء الافتراضي للتعبير عن آرائهم ونقد النظام، متجاوزين الرقابة التقليدية.

وقد واجه هؤلاء الناشطون حملات اعتقال وملاحقة من قبل الأجهزة الأمنية، لكنهم نجحوا في كسر جدار الخوف وفتح فضاءات جديدة للتعبير والنقد.

كما شهدت هذه الفترة تنامي الحركات الاحتجاجية حول قضايا محددة، مثل الاحتجاجات ضد الفساد، والمطالبة بتحسين الخدمات، والاحتجاج على مصادرة الأراضي، وعلى الرغم من محدوديتها، فقد شكلت هذه الاحتجاجات بذورًا للحراك الثوري الذي سينفجر لاحقًا.

لكنّ الحدث الأبرز في هذه المرحلة كان الاستعصاء الشهير الذي حصل في سجن صيدنايا سيّء السمعة، الذي كان يلقّب بالمسلخ البشري؛ ففي عام ٢٠٠٨م[١] ازدادت الضغوط على السجناء في صيدنايا -وغالبهم من معتقلي الرأي من الإسلاميين وغيرهم- وشكّلت عمليات التعذيب الجسدي والنفسي، والإهانات وسبّ الدين والأعراض، وإهانة المصحف الشريف، وسبّ الذات الإلهية بشكل هستيري من قبل جلاوزة النظام؛ السبب الرئيسي للاستعصاء، كما كان المعتقلون في غالبهم من ذوي الاعتقالات التعسفية لسنوات عديدة دون محاكمات أو معرفة التهمة الموجهة إليهم، ليجتمع عليهم العذاب النفسي والجسدي.

في السابع والعشرين من شهر مارس لعام ٢٠٠٨م انفجر المعتقلون غضبًا، بعد نفاد الصبر وشدّة الحال، لتحصل أكبر حركة تمرّد داخل السجن استمرت أكثر من ستة أشهر، قامت فيها قوات الفرقة الرابعة مع ما عُرف حينه بقوات مكافحة الإرهاب الإجرامية بأبشع الممارسات الإجرامية والقتل والقنص بحق السجناء، ما تسبّب في مجزرة قتل فيها العشرات من المعتقلين والمجندين الإلزاميين الذين زُج بهم في المواجهة لإخضاع السجناء، ولم تكن قوات النظام تفرق في القتل بين المعتقلين والمجندين.

حصلت في تلك الفترة احتجاجات ومطالبات للأهالي بأبنائهم، وكان النظام يرسل برسائل إلى أهالي المعتقلين لابتزازهم في أبنائهم من خلال طلب المال لقاء إخراج أبنائهم من المعتقل! كانت أحداثًا دموية شكّلت إرهاصات الثورة السورية عام ٢٠١١م.

ومع اندلاع الثورات العربية في تونس ومصر أواخر ٢٠١٠م وبداية ٢٠١١م، بدأت تتشكّل الظروف لانفجار شعبي في سورية؛ فقد شجّعت هذه الثورات السوريين على كسر حاجز الخوف والمطالبة بالتغيير، خاصة مع نجاح الثورتين التونسية والمصرية في الإطاحة برأسي النظامين.

> **طالب "إعلان دمشق" بإقامة نظام ديمقراطي في سورية، وإلغاء حالة الطوارئ والأحكام العرفية، وإطلاق الحريات العامة، وحلّ المشكلة الكردية حلاً عادلاً. وقد شكّل هذا التحالف أول محاولة جدية لتوحيد صفوف المعارضة السورية منذ عقود**

## الثورة السورية من السلمية إلى الجهاد المسلح (٢٠١١-٢٠٢٤م):

مثّلت الثورة السورية التي اندلعت في آذار/مارس ٢٠١١م ذروة النضال الشعبي ضد نظام البعث، وأطول وأعنف فصوله، فعلى مدى حوالي أربعة عشر عامًا خاض السوريون نضالاً مريرًا ضد النظام، ليتحول من احتجاجات سلمية إلى مقاومة مسلحة، ثمّ إلى حرب تحرير ضد احتلالات متعددة وميليشيات طائفية، أدت إلى مقتل أكثر من مليون من الشعب السوري، ومئات ألوف المعتقلين والمغيبين، وملايين المهجرين والنازحين، وتدمير شامل للبنية التحتية من قبل النظام المجرم وداعميه من الاحتلالين الروسي والإيراني وميليشيات الحقد الطائفية، في حرب تحرير ونضال طويلين ضد نظام مجرم، قبل أن تُتوّج هذه الثورة العظيمة بكلّ تضحياتها بسقوط النظام في نهاية عام ٢٠٢٤م.

كانت أولى إرهاصات الثورة السورية في منتصف مارس، في الخامس عشر منه عام ٢٠١١م، بدأت شرارة الأحداث تلوح من باحات الجامع الأموي بدمشق، حين خرج العشرات في مظاهرة سرعان ما

(١) استعصاء سجن صيدنايا ٢٠٠٨، الذاكرة السورية: https://syrianmemory.org/

تم تفريقها من قبل موالين للنظام، وتكرر المشهد في اليوم التالي أمام وزارة الداخلية في ساحة المرجة، حيث اشتبك المتظاهرون مع الشرطة.

غير أنّ الثامن عشر من آذار/مارس ٢٠١١م شكّل نقطة التحول الدامية، وكانت شرارتها في مدينة درعا جنوب البلاد، فقد سبقت هذا اليوم أحداثٌ فجّرت الغضب الشعبي، تمثّلت في قيام قوات الأمن باعتقال مجموعة من الأطفال والفتيان بتهمة كتابة شعارات مناهضة للنظام على جدران مدرستهم، من بينها عبارة "الشعب يريد إسقاط النظام" التي كانت قد تحولت إلى شعارٍ للثورتين التونسية والمصرية.

وتفاقم الاحتقان عقب تعرّض أهالي الأطفال وبعض وجهاء المدينة للإهانة والتهديد من رئيس فرع الأمن السياسي حين طالبوا بالإفراج عن أبنائهم، وهو ما أثار موجة غضبٍ واسعة في درعا، تُرجمت بخروج مظاهرة حاشدةً يوم الجمعة ١٨ آذار/مارس، عُرفت بـ"جمعة الكرامة"، لتفتح البلاد بذلك على مسارٍ جديد من المواجهة الدموية.

واجهت قوات الأمن المتظاهرين بالرصاص الحي، ما أدى إلى سقوط أول شهداء الثورة السورية. وبدلاً من أن يؤدي القمع إلى إخماد الاحتجاجات، اتّسعت وانتشرت في عموم سورية انتشار النار في الهشيم؛ فقد تحولت مراسم تشييع الشهداء إلى مظاهرات أكبر، وبدأت الاحتجاجات تنتشر إلى مدن أخرى، في بانياس، ثم دوما، ثم إلى حمص، وحماة، واللاذقية، وإدلب، ثم شملت كافة المحافظات السورية.

اتّخذت الاحتجاجات في البداية طابعًا سلميًّا؛ حيث رفع المتظاهرون شعارات تطالب بالإصلاح والحرية والكرامة، ومع استمرار القمع العنيف من قبل قوات الأمن بدأت الشعارات تتصاعد وصولاً إلى المطالبة بإسقاط النظام.

حاول النظام في البداية احتواء الاحتجاجات من خلال مزيج من القمع والوعود بالإصلاح، لكن استمرار القمع العنيف جعل الثورة تتحول تدريجيًا نحو المقاومة المسلحة لحماية الحراك السلمي والأهالي من بطش النظام واعتداءاته. وفي حزيران/ يونيو ٢٠١١م أعلن الملازم أول حسين هرموش انشقاقه عن الجيش النظامي ورفض تنفيذ أوامره ضد الشعب، وأسس "كتيبة الضباط الأحرار" في أول انشقاق علني عن الجيش، تبعه المئات من الضباط والجنود الذين رفضوا إطلاق النار على المتظاهرين، ثم بدأت القوى الشعبية تتحرك بأقل وسائل الدفاع عن المظاهرات وردع أرتال مجرمي نظام البعث، فتأسست عدة كتائب ثورية شعبية، ومن أبرز ما اشتهر منها: كتائب أحرار الشام التي أسسها كل من حسان عبود أبو عبدالله الحموي وخالد أبو أنس سراقب، ولواء التوحيد الذي أسسه عبدالقادر الصالح، ولواء الإسلام بقيادة زهران علوش رحمهم الله جميعًا، وكان طابعها إسلاميًا، كما تأسست الكثير من الكتائب والألوية الثورية في مرحلة مبكرة من الثورة عرفت باسم "الجيش الحر" لاحقًا[1].

**اتّخذت الاحتجاجات في البداية طابعًا سلميًّا؛ حيث رفع المتظاهرون شعارات تطالب بالإصلاح والحرية والكرامة، ومع استمرار القمع العنيف من قبل قوات الأمن بدأت الشعارات تتصاعد وصولاً إلى المطالبة بإسقاط النظام**

بحلول عام ٢٠١٢م كانت سورية قد دخلت في حرب تحرير شاملة؛ فقد سيطرت الفصائل الثورية المسلحة على مناطق واسعة من البلاد، خاصة في الشمال والشرق، وأجزاء من دمشق وحمص، وفي المقابل انحسرت سيطرة النظام إلى دمشق والساحل وبعض المدن الرئيسية.

لاحقًا، ومع تصاعد حدة المعارك وتقدم فصائل الثورة؛ بدأت القوى الإقليمية والدولية بالتدخل، فتلقت كثير من فصائل الثورة دعمًا متفاوتًا من تركيا وقطر والسعودية والأردن، في حين وقفت إيران وروسيا إلى جانب النظام بكل قوة ودعم مادي وعسكري متنوع؛ مما أدى إلى تعقيد المشهد وإطالة عمر النظام.

(١) أطلق اسم «الجيش الحر» على مجموعة كبيرة من الفصائل المسلحة والتي لم تكن ذات طابع أو مشروع إسلامي بالمعنى المتعارف عليه، وكان لها حضور كبير في كافة المناطق، وإنجازات كبيرة، لم تجمعها قيادة واحدة وإن تعددت المحاولات لكن بقيت في الإطار النظري في كثير من تفاصيلها، وكان أول من أعلن عن هذه التسمية هو العقيد رياض الأسعد في تموز/ يوليو ٢٠١١م.

شهدت الساحة السورية تطورات دراماتيكية في السنوات التالية؛ ففي عام ٢٠١٣م ظهر تنظيم "الدولة الإسلامية" (داعش) كقوة جديدة في الصراع، وحارب فصائل الثورة وسيطر على مناطق نفوذها حتى انتهى به الحال إلى السيطرة بشكل شبه كامل على شرق سورية، وفي عام ٢٠١٥م تدخلت روسيا عسكريًا لدعم النظام، مما غيّر موازين القوى لصالحه.

وبدعم روسي وإيراني استعاد النظام السيطرة على مناطق واسعة كان قد فقدها، بما فيها حلب (٢٠١٦م) والغوطة الشرقية ودرعا (٢٠١٨م)، وبحلول عام ٢٠١٩م كان النظام قد استعاد السيطرة على معظم الأراضي السورية، باستثناء إدلب وأرياف حلب الشمالية والغربية والشرقية ومناطق محدودة في ريف حماة الشمالي، بالإضافة إلى مناطق شرق الفرات التي سيطرت عليها قوات سورية الديمقراطية المدعومة أمريكيًا.

على الرغم من هذه الانتكاسات، لم تتوقف المقاومة المسلحة في مناطق محدودة، خاصة في إدلب وريف حلب.

في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢٤م وبعد أربعة عشر عامًا من اندلاع الثورة، شنت فصائل الثورة هجمات واسعة النطاق على مواقع النظام في مختلف أنحاء سوريا، ففي الشمال قادت غرفة ردع العدوان وجيش الحرية عمليات عسكرية منسقة، بينما تحركت في الجنوب غرفة فتح دمشق وجيش سوريا الحرة، إلى جانب فصائل محلية وتجمعات شعبية أخرى.

جاءت هذه التطورات في ظل انهيار اقتصادي حاد، وتفكك متسارع في أجهزة الدولة، وتراجع الدعم الروسي والإيراني، إضافة إلى تحولات دولية مفاجئة، ولا سيما في أعقاب حرب السابع من أكتوبر في غزة؛ ما أدى إلى انهيار نظام البعث بسرعة لافتة، فقد هرب بشار الأسد من دمشق منهيًا حكْم عائلة الأسد الذي استمر ٥٤ عامًا، وحكْم حزب البعث الذي استمر ٦١ عامًا، وهكذا انتصرت الثورة السورية أخيرًا، بعد نضال طويل ومرير، وبتضحيات جسيمة قدمها الشعب السوري.

## الخاتمة:

يمثّل سقوط نظام البعث في سوريا نهاية حقبة تاريخية مظلمة وبداية مرحلة جديدة مليئة بالتحديات والآمال، وقد دفع الشعب ثمنًا باهظًا في الوصول إليها، لكنّ هذا النضال أثبت أيضًا قدرة الشعوب على الصمود في وجه أعتى أنظمة القمع والاستبداد، ويقدم دروسًا قيمة من أهمّها: أنّ النضال قد يكون طويلاً وصعبًا، وقد يمرّ بانتكاسات وهزائم، لكنه في النهاية سينتصر طالما ظلّت إرادة الحرية حية في نفوس الناس.

ومنها أنّ الثورة السورية امتداد تاريخي لهذا النضال ومحطاته المتتابعة على مدى عقود، وأن المجتمع الحي أبقى النظام في حالة استنفار وقلق دائمين، فاقدًا للشرعية ومرفوضًا وطنيًا بسبب طابعه الطائفي، كما أبقى جذور الحذر والدفع حاضرة في العقل الباطن والعملي للمجتمع، فلم يفلح النظام في تغيير هوية الأجيال، ولا في صناعة المجتمع البعثي الذي سعت إليه برامجه التنظيمية.

واليوم تواجه سورية تحديات هائلة في مرحلة ما بعد البعث؛ فهي بحاجة إلى إعادة بناء مؤسسات الدولة على أسس من العدالة والكرامة والحرية والقيم، وإعادة إعمار ما دمره النظام، وعودة اللاجئين والنازحين، وبناء اقتصاد قادر على تلبية احتياجات المواطنين.

إن الشعب الذي صمد في وجه الاستبداد لعقود، وقدم تضحيات جسيمة في سبيل حريته، قادر على مواجهة هذه التحديات وبناء سوريا جديدة، حرة وكريمة ومزدهرة، تليق بتضحيات شهدائها وآمال أبنائها، بالتوكل على الله والاستعانة به.

**"إنّ الشعب الذي صمد في وجه الاستبداد لعقود، وقدّم من التضحيات ما يفوق الوصف، قادرٌ على أن يبني سورية جديدة، حرّةً كريمةً، تليق بدماء شهدائها وآمال أبنائها"**

# الجماعات والحركات الإسلامية ودورها في الحفاظ على المجتمع المسلم: سوريا نموذجًا

د. رغداء زيدان (*)

**حين تضعف الدول وتتعاظم التحديات، ينهض سؤال الهوية: من يحفظ المجتمع من التفكك؟ عبر قرون من الاستعمار والاستبداد والتحولات الكبرى، لم تكن الجماعات والحركاتُ الإسلامية مجرد أطر دعوية، بل تحوّلت إلى حواضن وعي، ومدارس إصلاح، وشبكات حمايةٍ اجتماعية. في هذا المقال نتتبع مسارها في سوريا نموذجًا، من حلقات الإصلاح الأولى إلى مؤسسات العمل العام المعاصر، لنقرأ دورها في صيانة الهوية وبناء الاستقرار، وإمكاناتها في الإسهام في إعادة بناء الدولة.**

## مقدمة:

رغم القوة والمنعة التي بدأت بها الدولة العثمانية كخلافة إسلامية حرصت على تطبيق الشريعة، فإنّ مظاهر الضعف ما لبثت أن تسللت إليها؛ فانتشرت بعض الخرافات، وتراجع المستوى العلمي في أطرافها، مع ضعف مؤسسات الدولة وتآكل هيبة السلاطين وقدرتهم على ضبط شؤونها، الأمر الذي شجّع على ظهور التمردات في أقاليم متفرقة منها.

ومنذ بداية القرن السادس عشر بدأت الحركات الإصلاحية الدينية التي كانت تدعو إلى العدل والتمسك بالدين[1]، وركزت على محاربة البدع والخرافات التي انتشرت بصورة كبيرة، وكان

(*) أكاديمية باحثة.

(١) ينظر: جدلية العلاقة بين الدين والدولة في الفكر العثماني بين متطلبات الإصلاح ومساعي التحديث، أمينة مولوة ونادية طرشون، مجلة دراسات وأبحاث، المجلة العربية للأبحاث والدراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ١٦، العدد ٣، مايو ٢٠٢٤م، السنة ١٦، ص (١٦٠) وما بعد.

المصلحون يرون أن انتشار البدع والخرافات والجهل سيصيب الدولة في مقتل، ولا بد من العمل على محاربة ذلك حفظًا للدولة والدين، وكان على رأس تلك الحركات الإصلاحية حركة «قاضي زادة»[١] التي كان لها تأثير كبير في السلطنة، وانتشرت في معظم أرجائها، وخاصة في الشام، على يد محمد أفندي الأسطواني (١٦٠٨-١٦٦١م)، الذي كان له نشاطه في إسطنبول وكان له أتباعه، وقد ورث ابنه مصطفى دعوته ومكانته، فولي الخطابة بالجامع الأموي بدمشق حتى وفاته؛ مما يؤكد شيوع دعوته في الشام[٢]، التي كانت تدعو للعودة إلى نقاء الدين كما جاء به النبي ﷺ.

التدهور السياسي والعلمي في الدولة العثمانية بالتزامن مع الصعود الأوروبي جعل الأنظار تتجه نحو أوروبا، وبدأت البعوث العثمانية إلى أوروبا تعود بانطباعات تعلي من شأن الحضارة الأوروبية، وتتحسر على وضع الدولة العثمانية. من ذلك ما كان في عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠م) الذي أرسل سفيره محمد چلبي أفندي (١٦٧٠-١٧٣٢م)، الذي سجل وصفًا منبهرًا للإنجازات الفرنسية في الميادين العسكرية والعلمية والتقنية، إضافة إلى الجانب المعماري[٣]، ودعا إلى الأخذ بالنظم الغربية دون أن يدعو صراحة للتخلي عن الإسلام.

لكن الهزائم التي منيت بها الدولة العثمانية في نهاية القرن ١٧ وبداية القرن ١٨، شجعت بعض الأصوات الداعية لترك الدين والاقتداء بالغرب، فالغرب الصاعد ترك الدين وراء ظهره واتجه نحو العلم والعقل، وإذا أردنا النهضة لا بد أن نحذو حذوهم؛ ما فتح المجال واسعًا أمام تيار التغريب، الذي تبنّاه كثير من المفكّرين في تلك الأيام، وتطرّفوا في آرائهم لدرجة رفضهم وتبرّئهم من كلّ ما يمتّ إلى الدين بصلة بحجة أنه قديم وتخلف، لكن جهود العلماء المسلمين أفرادًا وجماعات كانت سدًا منيعًا أمام موجة التغريب التي كادت تطيح بكل شيء.

## الإصلاح الديني بداية النهوض:

بدأ العلماء المصلحون بالدعوة «إلى مواجهة التحديات الغربية للمسلمين بالعودة إلى مصادر الشريعة الأصيلة من قرآن وسنة، وإلى إحياء الإسلام فكريًا وسياسيًا، ونبذ الجهل والجمود والتزمت»[٤]. لقد كان منهجهم منهجًا إصلاحيًا تعليميًا، يدعو لنبذ الجهل وطلب العلم والعودة إلى أصول الإسلام الأولى البعيدة عن الخرافات والبدع، فسوء الإدارة والأحوال المتردية هو السبب في تأخُّر الدولة العثمانية، ولن يكون الإصلاح بنبذ الدين والأخذ عن الغرب، بل لا بد من الإصلاح الديني والاجتماعي؛ لذلك فإنَّ مسألة محاربة الجمود والبدع والخرافات كانت قضية محورية في كتابات وخطب العلماء.

وكان لا بد من ناحية أخرى من وجود جماعات مركزية محورية، تأخذ على عاتقها موضوع نشر الوعي والفكر الديني الصحيح، فقد كان للشيخ جمال الدين القاسمي (١٨٦٦-١٩١٤م) مثلاً حلقة خاصة ظهرت في دمشق، يجتمع فيها مع مجموعة من أصدقائه، على رأسهم الشيخ عبد الرزاق البيطار (١٨٣٧-١٩١٦م)، يقرؤون بعض الكتب الدينية والفقهية والفكرية ويناقشون أفكارها، وهو ما أزعج السلطات العثمانية وجر على المجموعة جملة من التهم منها: الاجتهاد، وتهديد أمن الدولة[٥]. أما الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥م) صاحب مجلة المنار، ورئيس المؤتمر السوري الذي نتج عنه أول دستور لسورية الحديثة عام ١٩٢٠م، فقد اشترك في تأسيس بعض الجمعيات الإسلامية بهدف المطالبة بالإصلاح السياسي والإداري في السلطنة، كجمعية الشورى العثمانية، التي كانت تطالب بالحكم النيابي والعمل بالدستور[٦]. ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأت الجمعيات الإسلامية بالظهور في الدولة العثمانية، وكان أولها في سوريا: جمعية المقاصد الخيرية التي انتشرت

(١) ينظر: السلفية العثمانية: إحيائية إسلامية في مواجهة البدع الصوفية، كريم عبد المجيد، موقع إضاءات، ٢٣/ ٨/ ٢٠١٥م، على الرابط: https://www.ida2at.com/ottoman-islamic-salafi-biological/. وينظر: الخلافة العثمانية ودورها في التجديد الديني وظهور الحركات الإصلاحية، حاكم المطيري، إسطنبول، ٢٠١٩م، ص (١٢٧).

(٢) ينظر: الخلافة العثمانية ودورها في التجديد الديني وظهور الحركات الإصلاحية، ص (١٣٠).

(٣) سفير عثماني في فرنسا مطلع القرن التاسع عشر، عبدالرحيم محب أفندي، محمد العواد، مجلة ذخائر، العدد ٧، موقع منار الإسلام للأبحاث والدراسات، ١/ ١٢/ ٢٠٢٠م، على الرابط: https://islamanar.com/ottoman-ambassador-in-france-at-the-beginning-of-the-nineteenth-century-abdul-rahim-mouhib-efendi/.

(٤) تاريخ المشرق العربي المعاصر، أحمد طربين، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ط ٤، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، ص (٣٧٣).

(٥) جمال الدين القاسمي وعصره، ظافر القاسمي، ص (٤٨-٦٩).

(٦) محب الدين الخطيب، «رفيق بك العظم»، مجلة الزهراء، العدد ٢ (الربيعان، ١٣٤٤هـ)، ص (٢٣٠).

فروعها في كلِّ أنحاء سورية عام ١٨٧٨م[١]. ثمّ بدأ ظهور الجمعيات ذات الطابع السياسي مع مطلع القرن العشرين التي ناقشت قضية الانحطاط وحاجة السلطنة العثمانية للإصلاح دون التخلي عن الهوية والدين[٢].

> **مثّل العلماء المصلحون في أواخر العهد العثماني تيارًا إصلاحيًا سعى إلى معالجة مظاهر الضعف عبر العودة إلى أصول الشريعة، ومحاربة البدع والجمود، ونشر التعليم والوعي، وتأسيس حلقات وجمعيات إصلاحية جمعت بين الدعوة والعمل الفكري والمطالبة بالإصلاح السياسي مع الحفاظ على الهوية الإسلامية**

## الحفاظ على المجتمع المسلم ومقاومة المستعمر:

عندما دخل الفرنسيون سوريا شاعت عبارة القائد الفرنسي غورو أمام قبر صلاح الدين قائلاً: «ها قد عدنا يا صلاح الدين»[٣] في إشارة للحروب الصليبية، فاستنفر العلماء ورجال الدين لدفع هذا الخطر بكل إمكاناتهم التعليمية والتوعوية، فسارعوا لتشكيل الجمعيات الإسلامية التي بدا أن أهم أهدافها المحافظة على الدين والهوية ومحاربة الجهل والبدع التغريبية، فانتشرت الجمعيات الإسلامية في كل المدن السورية، وخاصة في العاصمة دمشق، وفي المدن الكبرى كحلب وحماة وحمص، فكانت الجمعية الغراء التي أسسها الشيخان علي الدّقر (١٨٧٧-١٩٤٣م) ومحمد هاشم الخطيب (١٨٩٠-١٩٥٨م)، وكان الاثنان من تلاميذ الشيخ بدر الدين الحسني (١٨٥٠-١٩٣٥م) وجالا معه في مدن سورية لوعظ الناس وبيان أحكام دينهم، وحثِّهم على الجهاد ضد الفرنسيين»[٤].

ومن الجمعيات التي نشأت في دمشق: جمعية الهداية الإسلامية التي ظهرت في ٢٦ يوليو/ تموز ١٩٣٠م على يد مجموعة من الدمشقيين[٥]، بغاية: «محاربة ما حدث من البدع، ومقاومة ما تجدَّد من الأهواء، قيامًا بالواجب الشرعي، وانتصارًا للحق على الباطل»[٦]. وركّزت الجمعية على التعليم الديني، وسعت لنشره في سورية[٧]، في محاولة لحفظ هوية المجتمع ومنع التغريب ومظاهره وأفكاره من التغلغل فيه.

ومن الجمعيات في سوريا أيضًا: جمعية التمدن الإسلامي التي تأسست عام ١٩٣٢م على يد مجموعة من رجال الدين والفكر في دمشق، منهم محمد بهجة البيطار (١٨٩٤-١٩٧٦م)، ومحمد جميل الخاني (١٨٩٢-١٩٥١م)، ومصطفى الزرقا (١٩٠٤-١٩٩٩م)، وعلي الطنطاوي (١٩٠٩-١٩٩٩م)، وزهير الشاويش (١٩٢٥-٢٠١٣م)، وغيرهم، وكان أبرز من تولى رئاستها أحمد مظهر العظمة (١٩٠٩-١٩٨٢م)[٨]، وقامت الجمعية من أجل الدعوة إلى الإسلام الصافي ولتحذِّر الناس من الإلحاد، وأمثال هذه الضلالات والمنكرات، وتأخذ بأيديهم إلى الإسلام المشرق، دين الهداية والمدنية والسعادة والتسامح الحق والحضارة المثلى.

وفي حلب ظهرت جمعية البر والأخلاق الإسلامية عام ١٩٣٠م، وجعلت غايتها تثبيت العقائد الإسلامية وتقويتها في نفوس المسلمين، والعمل بأحكام الكتاب والسنة[٩]. وكان الشيخ محمد راغب الطباخ (١٨٧٦-١٩٥١م) من أبرز مؤسسيها[١٠]. ومن مؤسسيها أيضًا السياسي محمد معروف الدواليبي (١٩٠٩-٢٠٠٤م)، وناصرت قضايا المسلمين في العالم. وكان لها فرع في إدلب، تولى رئاسته الشيخ محمد نافع شامي (١٩٠٧-١٩٩١م)، وكان هذا الفرع يعمل على بث تعاليم

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤-١٩١٤م)، لعبد العزيز محمد عوض، ص (٢٦٤-٢٦٥).
(٢) صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام، سهيلة ياسين الريماوي، مجلة البحث التاريخي، العدد ٧ (ربيع الأول ١٤٠٢هـ/ كانون الثاني ١٩٨٢م)، ص (١٣٦-١٣٧).
(٣) ينظر: في الذكرى المئوية لزيارة الجنرال جورو لضريح صلاح الدين.. هل قال «ها قد عدنا يا صلاح الدين»؟ ٣ من شهود العيان، عبد السلام حيدر، موقع عربي بوست، ٢٤/ ٦/ ٢٠٢٠م، على الرابط: https://2u.pw/T2Nfv2
(٤) ذكريات علي الطنطاوي (٢١٩/١).
(٥) هم: أبو الخير الميداني، راشد القوّتلي، عارف الدُّوجي، عبد الرزاق الحفار، عبد القادر شمّوط، عبد القادر العاني، محمد كامل القصَّار، محمد توفيق عمار، محمد صالح العقَّاد، محمد صبحي الحفار، محمود ياسين، ياسين الجويجاتي.
(٦) البيان التأسيسي لجمعية الهداية الإسلامية، مجلة الفتح، السنة الخامسة، العدد ٢٣٢ (الخميس ١٢ شعبان ١٣٤٩هـ)، ص (٥٠٣).
(٧) التعليم الديني في مدارس سورية وعد نسأل الله تعالى تحقيقه، محمود ياسين، مجلة الفتح، السنة ٧، العدد ٣١٤ (الخميس ١٣ جمادى الآخرة، ١٣٥١هـ)، ص (٢٢١).
(٨) الأستاذ أحمد مظهر العظمة في شعره ونثره، حسان الكاتب، مجلة العرفان، المجلد ٦٥، العددا (يناير ١٩٧٧م/ محرم-صفر ١٣٩٧هـ)، ص (٥٠-٥٩).
(٩) ينظر، جمعية إسلامية في حلب، مجلة الفتح، السنة ٥، العدد ٢٣٥ (الخميس ٣ رمضان ١٣٤٩هـ)، ص (٥٥٥).
(١٠) الأنوار الجلية في مختصر الأثبات الحلبية، محمد راغب الطباخ، ترجمة الشيخ بقلم ابنه محمد يحيى، ص (٢٢).

الإسلام في المجتمع، ويشارك في العمل الاجتماعي والوطني والسياسي[١].

ومع عدد من علماء دمشق أسس الشيخ كامل القصاب (١٨٧٣-١٩٥٤م) جمعية العلماء سنة ١٩٣٧م، وكانت تهدف لمحاربة الإلحاد والفساد في المجتمع، ونصّ دستورها على أن غاية الجمعية «الاهتمام بشؤون المسلمين ومؤسساتهم الدينية، ورفع مستوى العلماء والمتعلمين وجمع كلمتهم، والدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة»[٢]. وفي ١١ رجب عام ١٣٥٧هـ/ ٦ أيلول ١٩٣٨م، أقامت الجمعية مؤتمرها الأول الذي ضم عددًا كبيرًا من علماء بلاد الشام والعراق، تباحثوا في أوضاع العالم الإسلامي ثم أصدروا بيانًا في تبرئة الإسلام مما يصمه به المستعمرون، وكشف النقاب عن دواعي الفرقة التي يبثها المستعمر في البلاد باسم حماية الأقليات، وطالبوا بمحاربة مظاهر الفساد والانحلال في المجتمع، والاهتمام بالعلوم الدينية واللغة العربية، والوقوف في وجه أعمال الاستعمار في البلاد المحتلة[٣].

وبالنسبة لجماعة الإخوان المسلمين فقد نشأت نتيجة مجموعة من الحوارات واللقاءات التي قامت بها مجموعة من الجمعيات الإسلامية السورية بداية ومنتصف الثلاثينيات، فتم تشكيل الجماعة عام ١٩٤٥م[٤]، واستطاعت مد نفوذها في جميع المدن السورية، وكان لها تأثير اجتماعي كبير، وضمت في صفوفها عددًا كبيرًا من رجال التربية والفكر، وهو ما فتح المجال أمامها للعمل من خلال منابر عديدة: تعليمية وإعلامية وسياسية[٥].

وإذا انتقلنا إلى الجزائر التي احتلها الفرنسيون أيضًا فقد أنشأ عبدالحميد بن باديس (١٨٨٩-١٩٤٠م) ومعه البشير الإبراهيمي (١٨٨٩-١٩٦٥م) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، في ١٦ ذي الحجة ١٣٥٠هـ /٥ من مايو ١٩٣١م، وكانت تهدف إلى تطهير الإسلام من البدع والخرافات، وإحياء الثقافة العربية، واستقلال الجزائر، وأسست عددًا من المدارس والمساجد والنوادي في أهم المدن والقرى الجزائرية التي وصلت إليها دعوتها، وامتد نشاطها إلى فرنسا بقيادة الشيخ الفضيل الورتلاني (١٩٠٠-١٩٥٩م) ومن معه من العلماء؛ للعناية بأبناء الجالية الجزائرية في فرنسا. وقد تعرضت الجمعية لصعوبات كثيرة بسبب محاربة المستعمر لها وتضييقه على علمائها، لكنها نجحت في تكوين أجيال جزائرية تؤمن بإسلامها وعروبتها وتحافظ على هويتها وانتمائها إلى عالمها العربي والإسلامي[٦].

وفي مصر ظهرت هناك مجموعات كثيرة، منها جمعية الشبان المسلمين التي تأسست عام ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م من أجل محاربة التيار التغريبي، ووصف محب الدين المناخ الفكري في القاهرة آنذاك بقوله: «كان جو القاهرة الفكري والثقافي في ذلك الحين متشبعًا برطوبة الأخذ بثقافة الغرب بكل ما فيها من خير وشر وجد وهزل، وأكثر القائمين على الأندية والعاملين في الصحافة والمترددين على الأندية والمجتمعات يعدون كل نزعة إسلامية رجعية وجمودًا، وكان العالم الإسلامي قد أصيب حينئذ بظهور الدعوة الكمالية إلى الفصل بين الدين وشؤون الدنيا، وتردد صدى ذلك في مصر على صفحات كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبدالرازق وأنصاره الكثيرين، كانت الدعوة إلى تأسيس جمعية الشبان المسلمين مهددة من كتاب الصحف ورجال هذه الهيئات الثقافية بحملات التشكيك والتنفير لو وصل خبر تأسيسها إلى ألسنتهم وصفحاتهم وأجوائهم، فتقرر من الساعة الأولى أن تكون الدعوة إلى هذا العمل الجدي منطويًا في مسار الكتمان»[٧]. وكانت هذه الجمعية متنبهة إلى ما يجري حولها، ومتيقظة لأعمال دعاة التغريب ودعواتهم، وأهدافهم التي يرمون إليها من

(١) الشيخ محمد نافع شامي، لمحمد حسان ومحمد وائل شامي، رابطة العلماء السوريين: https://islamsyria.com/site/show_cvs/٥٩٤

(٢) تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، لمحمد مطيع الحافظ، ونزار أباظة، (٦٦١/٢).

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) ظهرت حركة الإخوان المسلمين في سورية عام ١٩٤٥م، كفرع لجماعة الإخوان المصرية التي ظهرت منذ سنة ١٩٢٨م على يد حسن البنا، واتفقت في مبادئها مع مبادئ الجماعة في مصر، القائمة على الدعوة بطريقة الاتصال المباشر بالناس، والتحرك السياسي والحوار المفتوح، بما يخدم الإسلام والمسلمين ويعين على تحقيق أهداف الجماعة، لكن كان هناك اختلاف في طريقة العمل على أرض الواقع، وفي طرق الدعوة، بما يتناسب مع اختلاف الظروف في كلا البلدين: مصر وسوريا.

(٥) ينظر للتوسع حول جماعة الإخوان المسلمين وأعمالهم في سوريا: هذه تجربتي وهذه شهادتي، لسعيد حوى، وينظر: سورية في قرن، لمنير الغضبان.

(٦) للتوسع ينظر: من أعلام الحركة والدعوة الإعلامية المعاصرة، لعبد الله العقيل، ص (١٥٩، ١٦٧).

(٧) الشباب الإسلامي، محب الدين الخطيب، مجلة الزهراء، العدد٤، جمادى الثانية، ١٣٤٦هـ، ص (١٩٤).

# أهمية دور الجماعات الإسلامية في سوريا في مرحلة ما بعد الدمار

١ ترسيخ الاستقرار بالتوعية والدعم الأخلاقي والتكافل الاجتماعي

٢ تنظيم المبادرات لسد احتياجات يعجز عنها القطاع العام

٣ توجيه الأفراد أخلاقيًا ونشر قيم العمل والمسؤولية

٤ مواجهة الفكر المتطرف بتفكيكه بخطاب شرعي مؤصل

٥ فتح مساحات للحوار وجسر تواصل بين الفئات

إبعاد الشباب خاصة والمسلمين عامة عن تراثهم وماضيهم ولغتهم، بهدف سلخهم عن دينهم وتوجيههم إلى ما يريده الغرب ويريده الملحدون، وظلت هذه الجمعية تخدم قضيتها، وتحاول جمع الشباب المسلم والمثقف حولها من أجل الحفاظ على دينهم وأخلاقهم.

مع دخول الاستعمار الفرنسي إلى بلاد الشام والجزائر، برزت الجمعيات والحركات الإسلامية بوصفها استجابةً دينيةً ووطنيةً لحماية الهوية ومقاومة التغريب، فانتشرت في المدن الكبرى، وجمعت بين التعليم والدعوة والعمل الاجتماعي والسياسي، وسعت إلى تطهير العقيدة، وإحياء الثقافة العربية، وتحصين المجتمع في وجه مشاريع الاستعمار والتغريب.

## مقارعة المستبدين وتوجيه المجتمع:

عاشت سوريا سنوات عجاف في ظل حكم آل الأسد، الذي استبد وقمع وحارب الدين وقيم المجتمع، وقد وقفت الجماعات الإسلامية في وجهه ولم تخضع لجبروته، وقامت بتوعية الناس وتوجيههم لمحاربة الاستبداد، ومع قيام الثورة السورية عام ٢٠١١م وقفت كثير من الجماعات الإسلامية في صف الثورة، ودعت لإسقاط الأسد ونظامه. ومن هذه الجماعات كانت جماعة زيد التي أنشأها الشيخ عبد الكريم الرفاعي (١٩٠٤-١٩٧٣م) في الأربعينيات، وقد انتشرت في مساجد دمشق وريفها، واستقطبت الشباب الجامعي وحازت ثقة المجتمع من خلال النشاط والعلاقات والعمل الاجتماعي والدعوي. ورغم أن نشاط الجماعة توقف بعد أحداث الثمانينيات بسبب إخراج قاداتها خارج سوريا، إلا أنها عادت للعمل الدعوي والخيري بعد عودة الشيخ سارية (١٩٤٨-٢٠٢٥م) ومن بعده الشيخ أسامة عام ١٩٩٤م، وانحاز الشيخان أسامة وسارية الرفاعي إلى صف الثورة السورية منذ بدايتها، وكانت خطب الشيخ أسامة في جامع الرفاعي بكفرسوسة وخطب أخيه الشيخ سارية بجامع زيد بن ثابت في منطقة الفحامة بباب سريجة -التي انتقدا فيها عنف النظام وطريقة تعامله مع أحداث الثورة- تصدح بين السوريين والسوريات. وعندما انتقل الشيخان إلى تركيا مع بعض أتباع جماعة زيد بدءا العمل الدعوي والإغاثي من جديد عبر جمعيات ومنظمات عدة، مثل: جمعية زيد بن ثابت، ومؤسسة الحضارة الإسلامية، ومنتدى الشباب، ومنتدى المرأة والطفل،

بالإضافة لنشاط تدريس مسجدي في مسجد مهرماه سلطان في منطقة الفاتح بإسطنبول.

وفي ١٣/ ٨/ ٢٠١٢م أُعلن عن تفعيل رابطة علماء الشام برئاسة الشيخ أسامة الرفاعي، ومن ثم توسعت الرابطة وانضم لها علماء كانوا بالأصل خارج الشام، وكان لها نشاطات دعوية وإغاثية عديدة[١].

أما هيئة الشام الإسلامية، وهي منظمة مجتمع مدني دعوية مجتمعية، جاء في ميثاقها أنها تهدف إلى المحافظة على الهوية الإسلامية في المجتمع السوري، وتتبنى المواطنة كرابطة للتعايش المشترك بين أبناء الوطن الواحد[٢]، فقد انشغلت -وما تزال- بالعمل الدعوي والعلمي البحثي والاجتماعي، وكانت واضحة في خطابها الإسلامي الوطني.

وفي مؤتمر صحفي تم الإعلان عن تشكيل المجلس الإسلامي في ١٤ نيسان عام ٢٠١٤م، وضمّ أغلب الهيئات الإسلامية السورية في الداخل والخارج، وضم الهيئات الشرعية لأكبر الفصائل الإسلامية في سوريا. وقد وصل عدد أعضاء هيئته العامة بعد ثماني سنوات على تأسيسه ٢٥٢م عالـمًا وفقهيًا وممثلاً عن هيئات وجماعات إسلامية سورية مختلفة في توجهاتها وتصنيفاتها الفكرية والعقدية والمذهبية[٣]. وبضمه لعدد كبير من العلماء ورجال الدين السوريين المعروفين الذين لهم أتباع يحترمونهم ويأخذون عنهم؛ كان للمجلس خصوصية ومكانة عند السوريين لا يمكن تجاوزها، وقد كان من أهدافه أن يكون «هيئة مرجعية شرعية وسطية سورية، تسعى إلى جمع كلمة العلماء والدعاة وممثلي الكيانات الشرعية، وتوجيه الشعب السوري، وإيجاد الحلول الشرعية لمشكلاته وقضاياه، والحفاظ على هويته ومسار ثورته»[٤]، إضافة إلى سعيه لتفعيل دور المؤسسة الدينية في المجتمع السوري. وقد أصدر المجلس وثيقة الهوية السورية التي أكد فيها أن الإسلام هو دين غالبية الشعب السوري، وهو ثقافة وحضارة لجميع أبناء سوريا، كما أن «المكونات التاريخية العديدة الموجودة في سورية والمتنوعة في ثقافاتها ولغاتها وأديانها وانتماءاتها هي مكونات أصيلة، وحقوقها مصونة مضمونة، وحريات الجميع مكفولة متناغمة مع الهوية السورية الأصيلة، ولا تعود عليها بالنقض»[٥].

وقد نشأت بعد الثورة السورية مجموعة من الأحزاب السياسية ذات الخلفية الدينية، أو التي تسمي نفسها بالمحافظة، على يد مجموعة من الشخصيات المعارضة التي وجدت أن المرحلة تقتضي تشكيل أحزاب سياسية تعبر عن توجهات السوريين الدينية، دون ترك الساحة للتشكيلات السياسية العلمانية أو ذات التوجه اليساري. ولعل بعض تجارب الأحزاب السياسية ذات التوجه الديني في بعض البلدان العربية والمجاورة كانت محفزًا لهؤلاء للرغبة في الممارسة السياسية واكتساب خبرة بالعمل الحزبي المنظم.

**برزت الجماعات والهيئات الإسلامية السورية في المرحلة السابقة للثورة، ثم تعزّز حضورها مع اندلاعها، فشكّلت فاعلًا دينيًا واجتماعيًا وسياسيًا في مواجهة الاستبداد، وأسهمت في توجيه الشارع ودعم الثورة، ثم أعادت تنظيم حضورها عبر روابط وهيئات ومجالس وأحزاب سعت إلى الحفاظ على الهوية الإسلامية، وتفعيل المرجعية الشرعية، وخوض المجال العام ضمن أطر دعوية ومجتمعية وسياسية منظّمة**

## أهمية وجود الجماعات في بناء الدولة:

كان للجماعات والحركات والتجمعات الإسلامية أثر كبير في الحفاظ على المجتمع في البلاد العربية والإسلامية، وهي جزء من النسيج المجتمعي وأحد أركانه الهامة، ولها دور مهم في نشر الوعي والتعليم والعمل الخيري، فلا يخلو كيان من هؤلاء من وجود أذرعة له لخدمة المجتمع، أو الحث على تأسيس

(١) ينظر: موقع الرابطة الإلكتروني: https://www.rocham.org/

(٢) ينظر: ميثاق الهيئة، على موقع هيئة الشام الإسلامية، على الرابط: https://islamicsham.org/association/174.

(٣) ينظر: كلمة المتحدث الرسمي للمجلس الإسلامي السوري حول أكبر عمل قام به المجلس منذ تأسيسه قبل ثماني سنوات، موقع المجلس الإسلامي على يوتيوب، ١٦/ ٤/ ٢٠٢٢م، على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=mAIHZjE-jP4

(٤) ينظر: موقع المجلس الإسلامي السوري على الإنترنت، على الرابط: http://sy-sic.com/?page_id=2330.

(٥) ينظر: وثيقة الهوية السورية، على الرابط: http://sy-sic.com/?p=8794

ودعم الجمعيات الخيرية الخدمية[1]، والحفاظ على الهوية والاستقرار.

وإذا حاولنا تقييم عمل الجماعات الإسلامية خلال القرن المنصرم نجد أنها نجحت في تحقيق بعض الأهداف وفشلت في أخرى؛ فقد نجحت في حفظ هوية المجتمع المحافظة، واستطاعت تحريك الشارع لإلغاء قوانين وإقرار أخرى انطلاقًا من رؤية دينية إسلامية، واستطاعت أيضًا تحقيق أهداف سياسية في فترات صعبة، وكان نضالها لا يتوقف رغم التصادم مع الحكومات المختلفة. لكن وبسبب تركزها في المدن الكبرى غالبًا لم تستطع الوصول لكل أطياف المجتمع، فأهملت الأرياف والضواحي، كما أنها كانت بحاجة لتطوير الخطاب الاجتماعي الذي توجهت به للناس، فقد كان هذا الخطاب أحيانًا يقتصر على الوعظ دون الدخول في صلب المشاكل الاجتماعية، وكان لهذا دلالاته التي تستحق الدراسة المعمقة.

ورغم ذلك تبرز الحاجة لمثل هذه الجماعات أكثر في سوريا اليوم بعد الدمار الهائل الذي تركه النظام البائد، ليس فقط في العمران والاقتصاد إنما في الأخلاق والهوية والقيم الجامعة الرافعة. هذه الجماعات والتجمعات يمكن أن تكون سندًا للدولة ومعينًا للحكومة في مجالات عدة أهمها:

- في التوعية وفي ترسيخ الاستقرار المجتمعي؛ لأنها توفر الدعم الاجتماعي والأخلاقي، وتعمل كشبكات أمان عبر الخدمات الخيرية والتكافل الاجتماعي.

**للجماعات والحركات والتجمعات الإسلامية أثر كبير في الحفاظ على المجتمع في البلاد العربية والإسلامية، وهي جزء من النسيج المجتمعي وأحد أركانه الهامة، ولها دور مهم في نشر الوعي والتعليم والعمل الخيري**

- تنظيم المبادرات وتقديم الخدمات التي يحتاجها الناس بشدة ولا تستطيع الحكومة تلبيتها.
- توجيه الأفراد أخلاقيًا، ونشر القيم الإسلامية التي تدعو للعمل وتحمل المسؤولية والبعد عن الفساد.
- تفكيك الأفكار المتطرفة ونشر الخطاب الديني الذي ينطلق من الكتاب والسنة.
- توفير مساحات للحوار والنقاش كجسر تواصل بين فئات المجتمع المختلفة.

كل هذا وأكثر منه، سيكون عونًا للحكومة على أداء مهامها، والنجاح في توفير الاستقرار اللازم للبناء.

## أخيرًا:

إن العمل على تنظيم هذه الجماعات وتشجيعها على العمل العام، وبناء علاقة صحية مع الحكومة سيشجع العاملين فيها على الشفافية والحوكمة، وهذا سيساعد في تلافي الإشكاليات والنواقص في عمل هذه الجماعات، وسيمكن الحكومة من بناء شراكة مثمرة معها تصب في مصلحة المجتمع وبناء الدولة.

(١) ينظر: العمل الخيري المؤسسي في تاريخنا، موقع محمد صالح المنجد، على الرابط: https://almunajjid.com/lectures/lessons/٢٢٢.

# تسريبات إبستين: مرآة الانهيارِ الحضاريّ

د. مصطفى يعقوب (*)

**ألقت وزارة العدل الأمريكية ملايينَ الصفحات في وجه العالم، فإذا بها تكشف عن هاويةٍ حضاريةٍ لا عن ملفٍّ جنائيٍّ فحسب، فالأزمة ليست في أفرادٍ انحرفوا عن المسار، بل في منظومةٍ فلسفية أفرغت الأخلاقَ من مرجعيتها العليا وحوّلت الإنسانَ المُكرَّم إلى سلعةٍ للاستهلاك، حيث لا قانونَ يردع ولا عدالة تُصان. وهنا يُطرح السؤال الحضاريُّ بإلحاح: أيُّ نموذجٍ قيميٍّ يَحفظ كرامةَ الإنسان حين تُسدَل الأستار ويغيب الشهودُ؟**

لم تكن تسريبات إبستين مجرّد فضيحة جنائية عابرة، بل مرآةً انكسرت فيها صورة حضارةٍ طالما تباهت بالحرية والحقوق، ثلاثة ملايين ونصف مليون صفحة، ومئةٌ وثمانون ألف صورة، وألفا مقطع فيديو، هذا ما ألقت به وزارة العدل الأمريكية في وجه العالم يوم الثلاثين من يناير ٢٠٢٦م، تطبيقًا لقانون «الشفافية في ملفات إبستين» الذي أقره الكونغرس بتصويتٍ ساحقٍ بلغ ٤٢٧ مقابل صوتٍ واحد، ووقّعه ترامب في نوفمبر ٢٠٢٥م، لم تكن تلك أوراقًا قضائيةً جافّةً تخصّ مجرمًا واحدًا، بل كانت لحظة انكشافٍ نادرة تصدّعت فيها الواجهة اللامعة لمنظومةٍ طالما ادّعت قيادة البشرية باسم الحرية والتقدّم والحقوق، فإذا خلف الأبواب الموصدة وحوشٌ حقيقيةٌ بربطات عنقٍ أنيقة وشهاداتٍ مرموقة.

## شبكة العنكبوت:

جيفري إبستين لم يكن ذئبًا وحيدًا، بل كان العقدة المركزية في شبكةٍ تتشابك فيها خيوط المال والسياسة والاستخبارات والأكاديميا، بدأ مكتب التحقيقات الفدراليّ التحقيق معه عام ٢٠٠٦م بعد شهادات قاصراتٍ تعرّضن للاعتداء، وتوقّع المحقّقون

(*) باحث متخصص في تطبيقات الذكاء الاصطناعي والدراسات القرآنية.

توجيه الاتّهام بحلول ٢٠٠٧م، غير أنّ المدّعي الفدراليّ ألكسندر أكوستا -الذي صار لاحقًا وزير عمل ترامب- أبرم صفقةً سرّيةً مكّنت إبستين من الإفلات بعقوبةٍ هزيلة لا تتجاوز ١٣ شهرًا عام ٢٠٠٨م، ثمّ اعتُقل مجدّدًا في يوليو ٢٠١٩م بتهم الاتّجار الجنسيّ الفدرالية، ليُعثر عليه ميتًا في زنزانته بعد أسابيع في ظروفٍ لا تزال تتحدّى كلّ تفسيرٍ رسميّ.

وكشفت الوثائق شبكةً عملت على مستوياتٍ متداخلة: وساطاتٌ مالية يُستغلّ فيها النفوذ لإبرام صفقاتٍ مشبوهة، وحفلاتٌ في «جزيرة الشيطان» كان طَبقُها الأساسيّ فتياتٍ قاصرات، واستخباراتٌ بالمناولة حيث يصير كلّ ما يجري مادةً للابتزاز، بل رسائلُ عام ٢٠١١م تفضح خططًا للاستيلاء على أصول ليبيا المجمّدة البالغة ثمانين مليار دولار بمساعدة استخباراتٍ بريطانية وإسرائيلية مقابل عمولةٍ فاحشة، أمّا التوقيت فله سياقٌ سياسيٌّ لا يُغفل: تعهّد ترامب بالكشف عن الملفات واتّهم إدارة بايدن بإخفائها، ثمّ حين صدرت ظهر اسمه أكثر من ٣٠٠٠ مرّة فسارع إلى التصريح بأنّ الوثائق لا تدينه ولا تتضمّن ما يثبت تورّطه، فيما رفض كلينتون وزوجته الإدلاء بشهادتيهما، وهكذا تبيّن أنّ المناكفة الحزبية هي المحرّك لا العدالة، وكلّ طرفٍ يوظّف الملفات سلاحًا ضدّ خصمه ودرعًا لحلفائه.

> **جيفري إبستين لم يكن ذئبًا وحيدًا، بل كان العقدة المركزية في شبكةٍ تتشابك فيها خيوط المال والسياسة والاستخبارات والأكاديميا**

## حين تسقطُ الأقنعة عن «النُّخبة»:

ما يرتقي بهذه القضية من فضيحةٍ فرديةٍ إلى ظاهرةٍ بنيوية هو نوعية الأسماء التي نثرتها الوثائق، فقد ورد اسم الأمير أندرو مئات المرّات في مراسلات إبستين الخاصّة، واستقال بيتر ماندلسون -السفير البريطانيّ السابق لدى واشنطن- من مجلس اللوردات في فبراير ٢٠٢٦م بعد ظهور رسائل تشير إلى مشاركته معلوماتٍ حكوميةً حسّاسة مع إبستين، وفتحت الشرطة البريطانية تحقيقًا جنائيًّا معه، وكشفت الملفات أنّ ميروسلاف لايتشاك -رئيس الجمعية العامة للأمم المتحدة الأسبق- طلب من إبستين «فتياتٍ صغيرات» وظهر اسمه أكثر من ٣٠٠ مرّة!

وستيفن هوكنج ذُكر أكثر من ٢٣٠ مرّة، ولورنس كراوس الفيزيائيّ الداعية للإلحاد تبادل أكثر من ٦٠ رسالةً مع إبستين واستشاره في كيفية الردّ على اتّهامات التحرّش، وهو الذي كان يتباهى بأنّه أقنع شابًّا مسلمًا بالشكّ في دينه، فزجره إبستين نفسه وطالبه بالتركيز على كونه عالمًا!

والأشدّ إيلامًا ما كشفته رسائل ديسمبر ٢٠١٨م بين إبستين وعالم الأحياء التطوّريّ روبرت تريفيرز: إذ ناقش فيها تريفيرز ببرودةٍ مرعبة أفكارًا تتعلق بإمكانية التدخّل الهرمونيّ على أطفالٍ في سنّ الثالثة لتغيير خصائصهم الجنسية، واصفًا كيف ينتج التلاعب الهرمونيّ «أنماطًا ظاهريةً جديدة» أكثر جاذبيةً جنسيًّا، وكأنّ البشر فئرانُ تجارب! وهو ذاته الذي صرّح لرويترز عام ٢٠١٥م مدافعًا عن إبستين: «حين يبلغن الرابعة عشرة يصبحن كالنساء البالغات قبل ستّين عامًا، فلا أرى هذه الأفعال بتلك البشاعة»! وعلى نطاقٍ أوسع امتدّت التداعيات دوليًّا: ففتحت تركيا وليتوانيا تحقيقاتٍ رسميةً بعد ظهور مؤشّرات على تهريب أطفالٍ من أراضيهما، فأيّ حضارةٍ هذه التي يكون «علماؤها» وساستها وأمراؤها بهذا الدرك الأخلاقيّ؟

## «سفاري سرايفو».. حين يصبح الإنسانُ طريدة:

ولمن يظنّ أنّ تسليع الإنسان ظاهرةٌ إبستينية محضة، فليتأمّل ما كشفته النيابة العامة في ميلانو أواخر ٢٠٢٥م: تحقيقٌ رسميٌّ في ظاهرة «سياحة القنص البشريّ» إبّان حصار سراييفو الذي استمرّ ١٤٢٥ يومًا وحصد أرواح أحد عشر ألف مدنيّ، بينهم ١٦٠٠ طفل، كان أثرياء غربيون من إيطاليا وأمريكا وكندا وروسيا يدفعون ما يعادل ثمانين إلى مئة ألف يورو للشخص الواحد مقابل «امتياز قتل مدنيين عُزّل» من مواقع قنصٍ محصّنة في الجبال المطلّة على المدينة المنكوبة! كانوا يتجمّعون في مدينة تريستي الإيطالية أيام الجمعة، وينتقلون عبر طائرات «أفيوجينيكس» الصربية إلى بلغراد، ثمّ بمروحيّات الجيش اليوغوسلافيّ إلى بلدة «بالي» معقل القيادة الصربية، ومنها بسيّاراتٍ مؤمّنة إلى حيّ غرافيتسا والتلال المطلّة على «زقاق القنّاصة»، ليقضوا عطلة نهاية الأسبوع في «صيد البشر»، ثمّ يعودون يوم الإثنين إلى عياداتهم ومكاتبهم وأسرهم كأنّ شيئًا لم يكن، «نتحدّث عن أصحاب ثرواتٍ وسمعة، رجال أعمال، كانوا يغادرون تريستي للصيد ثمّ يعودون ويواصلون حياتهم العادية»،

هكذا لخّص الصحفيّ الاستقصائيّ إيتسيو غافاتزيني المشهد في شكواه الجنائية المكوّنة من سبع عشرة صفحة.

والأفظع أنّه كانت هناك «قائمة أسعار» للأهداف البشرية: قتل الأطفال كان الأغلى ثمنًا والأكثر «طلبًا»، ثمّ الرجال، أمّا كبار السنّ فكانوا أحيانًا يُقدَّمون كـ«هدايا إحماء» مجّانية! شهد جون جوردان -الجنديّ الأمريكيّ المتطوّع في سراييفو- أمام المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا عام ٢٠٠٧م بأنّه رأى «سيّاح قنص» بأسلحة فاخرة وثياب نظيفة يعاملهم الضبّاط الصرب كـ«زبائن VIP»، ووصفهم بأنّهم «يحملون بنادق أنسب لصيد الخنازير في الغابة السوداء بألمانيا منها للقتال الحضريّ»، وأكّد ضابط المخابرات البوسنيّ إدين سوباشيتش أنّ الاستخبارات الإيطالية أُبلغت بهذه الرحلات عام ١٩٩٤م، فأجابت بعد أشهر أنّها «اكتشفت نقطة الانطلاق وأوقفت العملية» دون أن تعتقل أحدًا أو تفتح تحقيقًا! ثلاثون عامًا من الإفلات التامّ، حتّى استُدعي في فبراير ٢٠٢٦م أوّل مشتبهٍ به: جوزيبي فينيادوتزو، سائق شاحناتٍ ثمانينيّ كان يتباهى بـ«مغامراته»، ووُجد في منزله سبع بنادق قنصٍ مرخّصة... إنّها الصورة ذاتها في جزيرة إبستين وعلى تلال سراييفو: أثرياء «متحضّرون» يمارسون الوحشية المطلقة حين يغيب الرادع الداخليّ ويتوفّر المال الكافي لشراء الإفلات.

## التأسيسُ الفلسفيّ للوحشية:

ليس ما جرى في جزيرة إبستين أو على تلال سراييفو شذوذًا عن منطق الفلسفة المادية، بل هو ثمرتها الناضجة؛ فحين تُلغى المرجعية الإلهية تتحوّل الأخلاق إلى اتفاقاتٍ قابلةٍ للتعديل بحسب موازين القوى، ويصبح كلّ شيءٍ مباحًا لمن يملك ثمن الإفلات، كتاب «التاريخ الطبيعيّ للاغتصاب» قدّم الاعتداء الجنسيّ باعتباره «تكيّفًا تطوّريًّا»، وحين هوجم مؤلّفه ثورنهيل سخر من معترضيه وأجاب: «كلّ سمةٍ في كلّ كائنٍ حيّ لها خلفيةٌ تطوّرية، وهذه ليست مسألةً قابلةً للنقاش»! والفيلسوف بيتر كيف سأل: إذا كان الإنسان مجرّد حيوانٍ متطوّر، فما الذي يمنع أنواعًا «فائقة» من استعباد البشر واستهلاكهم؟

لقد صوّر القرآن الكريم هذا المنزلق بدقّةٍ مذهلة: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦-٧]، فبمجرّد أن يتوهّم الإنسان الاستغناء عن الله تتضخّم «الأنا» حتّى تبتلع كلّ شيء، فتولّد ساديةً في تملّك مصائر الآخرين، وهذا ما يفسّر تحوّل نخبٍ تمتلك كلّ أسباب القوّة والعلم إلى وحوشٍ تصطاد الأطفال في الجزر وعلى التلال، والوعد الشيطانيّ ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] يتجسّد حرفيًّا في رسائل تريفيرز عن التلاعب بأجساد الأطفال، والمفارقة أنّ هؤلاء الذين يحتجّون بـ«معضلة الشرّ» لإنكار وجود الله، حين امتلكوا القدرة لم يصنعوا إلّا شرًّا صرفًا، فأثبتوا أنّ الإنسان بلا إيمان ينحدر إلى ما كان يجعل منه حجّةً في جداله حول وجود الله.

ليس من العدل اختزال الحضارة الغربية بأكملها في هذه الفضائح، غير أنّ ما نتحدّث عنه ليس انحرافاتٍ فرديةً، بل نمطٌ بنيويّ يعكس أزمةً في الأساس الفلسفيّ ذاته: حين يصبح الإنسان هو المشرّع الأوحد لنفسه ثمّ يتلاعب أصحاب النفوذ بهذا الإنسان المشرِّع، تتحوّل «النسبية الأخلاقية» إلى رافعةٍ للاستغلال لا سقفَ لها.

> **ليس ما جرى في جزيرة إبستين أو على تلال سراييفو شذوذًا عن منطق الفلسفة المادية، بل هو ثمرتها الناضجة؛ فحين تُلغى المرجعية الإلهية تتحوّل الأخلاق إلى اتفاقاتٍ قابلةٍ للتعديل بحسب موازين القوى، ويصبح كلّ شيءٍ مباحًا لمن يملك ثمن الإفلات**

## حصنُ الفطرة: لماذا يعجز القانون وحده؟

أبلغ ما كشفته هذه القضايا أنّ القانون المجرّد من الأخلاق عاجزٌ عن حماية الضعيف من القويّ، صفقة أكوستا عام ٢٠٠٨م منحت إبستين حصانةً فعلية، و«سفاري سراييفو» ظلّ ثلاثين عامًا بلا محاسبة رغم علم الاستخبارات الإيطالية والأمريكية، وفرجينيا جيوفري -التي كانت من أبرز ضحايا هذه الشبكة- ناضلت عمرها كلّه فانتحرت دون أن تنال العدالة، القانون المنفصل عن رقابةٍ أخلاقيةٍ عليا يتحوّل إلى متاهاتٍ شكلية يتقن الأقوياء التلاعب بها، أمّا في الرؤية الإسلامية فالتشريع مرتبطٌ بمقاصد الشريعة الكلّية: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، والفرق الجوهريّ أنّ المنظومة الإسلامية تزرع في القلب رقيبًا أقوى من كلّ الكاميرات

والقوانين: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، هذا الوازع يحمي الطفل والمرأة حين تُسدل الستائر ويغيب الشاهد، لا الديمقراطية تفعل ذلك، ولا المنظّمات الدولية التي تتاجر بالشعارات وتتواطأ مع الجلّادين.

## دروسٌ تتجاوز الصدمة:

» **أوّلها:** سقوط أسطورة «النخبة المتنوّرة»، جرّاح التجميل الميلانيّ يقتل في عطلته، والعالِم يدافع عن اغتصاب القاصرات، والدبلوماسيّ الأمميّ يطلب «فتياتٍ قاصرات بريئات»، المناصب والألقاب والشهادات لا تمنح مناعةً أخلاقية، بل كثيرًا ما تكون الباب الذي يلجه الفساد ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥].

» **ثانيها:** خطورة التبعية الثقافية العمياء، المبهورون بالواجهة الغربية الذين ردّدوا «رأيتُ إسلامًا بلا مسلمين» لم يروا إلّا تنظيمًا ونظافة شوارع، بينما خلف هذا البريق تفكّكٌ أسريّ وتسليعٌ للإنسان وفراغٌ روحيٌّ مخيف، وقد حذّرنا النبي ﷺ: (لتتبعُنّ سَنن مَن قبلَكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه)[1]، والمطلوب ليس رفض كلّ ما عند الغرب، بل التمييز الواعي بين ما يُؤخذ وما يُردّ، وبين ما يُنقل وما يُحجب.

» **ثالثها:** أنّ فضيحة إبستين و«سفاري سراييفو» ليستا قضيّتَي «جنس» و«حرب»، بل قضية «استكبار» واحدة بصورٍ مختلفة، هؤلاء يحاربون الفطرة ذاتها، والعهرُ الأخلاقيّ يسير جنبًا إلى جنب مع العهر السياسيّ ضدّ غزّة والسودان وسوريا، فالذين يشاهدون الأطفال يُبادون دون أن يرفّ لهم جفنٌ هم من جنس أبطال هذه الوثائق.

» **رابعها:** الحاجة الماسّة لمشروعٍ حضاريٍّ إسلاميٍّ بديل، ما يخسره العالَم بتخلّف المسلمين عن رسالتهم يزداد فداحةً يومًا بعد يوم، كما بيّنه العلّامة أبو الحسن الندويّ، والإسلام ليس ترفًا فكريًّا، بل صمام أمانٍ بثبات عقيدته وقرآنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وأمام هذا الظلام تتجلّى عظمة النموذج النبويّ الذي جعل حرمة المؤمن أعظم من حرمة الكعبة: (ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك! والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك)[2].

» **خامسها:** أنّ التغيير يبدأ من الذات، إن توقّفنا عند الصدمة والسباب وبقيت مفرزات «الإبستينية» من إباحيةٍ وتسليعٍ وتفكّك منتشرةً في عقول أبنائنا ومجتمعاتنا فلا قيمة لما نكتبه، المطلوب تحويل الغضب إلى مشروع إصلاح يبدأ من تحصين إيمان الأبناء بالعلم والحجّة، ومن مراجعة ما تسلّل إلى ثقافتنا، ومن بناء مؤسّساتٍ تعليمية وإعلامية تقدّم البديل الحقيقيّ ولا تكتفي بلعن الظلام.

## فلنكن جنود الفطرة:

إنّ الحضارة المادّية قد آذنت بالرحيل، وسنّة التداول ماضيةٌ لا تتخلّف. وأنت حين ترى تعاسة البشرية في ظلّ هؤلاء الذين حوّلوا الأطفال إلى سلعٍ في الجزر وطرائد على التلال؛ تدرك لماذا قال الله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، أي خير أمّةٍ للناس جميعًا لا لأنفسها فحسب، في زمنٍ يُراد فيه للإنسان أن يتحوّل إلى رقمٍ أو سلعةٍ أو طريدة، يصبح تمسّكنا بديننا وحمايتنا لأسرنا وأبنائنا وللإنسانية جمعاء من هذا السيل الجارف أعظم أنواع الجهاد وأشرف ميادينه، فحفظ الدين هو عين حفظ الإنسان، وعالمٌ بلا إيمان وبلا حساب لا يستحقّ أن يُسمّى إنسانيًّا مهما بلغت عماراته وتقنياته، نسأل الله أن يحفظ أمّتنا وأبناءنا، وأن يجعلنا مفاتيح خيرٍ للبشرية كلّها، وأن يعجّل بنصر المستضعفين في كلّ مكان، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه.

**في زمنٍ يُراد فيه للإنسان أن يتحوّل إلى رقمٍ أو سلعةٍ أو طريدة، يصبح تمسّكنا بديننا وحمايتنا لأسرنا وأبنائنا وللإنسانية جمعاء من هذا السيل الجارف أعظم أنواع الجهاد وأشرف ميادينه**

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٢٦٦٩).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٢).

# دعوت كثيراً.. فلم يستجب لي!

أ. هدى عبد الرحمن النمر (*)

**كم من دعاء تكرر، وكم من رجاء تعلّق به القلب، ثم لم تقع الإجابة على الصورة التي انتظرناها؛ فتخالج النفس حيرة صامتة، ويبدأ السؤال يطرق القلب: لماذا لم يتحقق المراد؟ هل قصرت في شيء؟ أم أن الأمر أعمق من مجرّد تأخر في الإجابة؟ هذا المقال لا يجيب عن هذه الأسئلة فحسب، بل يصحح فهمناً لمعنى الاستجابة ذاتها، ويفتح بابًا أعمق لفهم الدعاء بوصفه عبوديةً قبل أن يكون وسيلةً لتحقيق المطالب.**

هذا السؤال من أكثر الأسئلة تردّدًا في قلوب المسلمين، وأكثرها إثارة للقلق والاضطراب في باب الدعاء واليقين بالله تعالى؛ خاصة في الأزمان الفاضلة التي يستحبُّ فيها الإكثار من الدعاء، كما في رمضان. وهو سؤال لا ينشأ من فراغ، بل من تجربة نفسية يعيشها العبد حين يطيل الدعاء، ويتكرر الطلب، ولا يرى تحقق مراده على الصورة التي يتمناها، فتتسلل إليه التساؤلات:

هل سُمِع دعائي؟ هل قُبِل؟ هل أنا مقصّر؟ أم أن وعد الله بالاستجابة لم يتحقق بعد؟

وهنا يتداخل على كثير من الناس مفهوم الاستجابة مع مفهوم تحقق عين المطلوب؛ فيقعون في حيرة قد تمسّ يقينهم، لا لخلل في الوعد الإلهي، بل لخلل في فهمه على وجهه.

## الدعاء مستجاب / استجابة الدعاء:

قبل الخوض في مواطن الإشكال في هذه المسألة لا بد من بيان الأصل في دعاء المسلم، وهو أن الدعاء مستجاب بوعد الله الصادق، وأن المسلم يناله الخير من دعائه لا محالة، كما ورد في الحديث: (ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، قالوا: إذن نكثر، قال: الله أكثر وأطيب)[٢].

(*) كاتبة ومؤلّفة ومتحدِّثة في الفكر والأدب وعُمران الذات.

(٢) أخرجه أحمد (١١١٣٣).

وعلى هذا يُحمل وعد الله تعالى بالإجابة في مثل قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فأصل الاستجابة ثابت لا مدخل للشك فيه، وكل إشكال لاحق في فهم المسألة لا يعود إلى أصل الاستجابة، بل إلى فهمها، أو توقيتها، أو صورتها.

## الفرق بين الاستجابة وتحقق عين المطلوب:

من أعظم ما يرفع الالتباس في هذا الباب: التفريق بين الاستجابة وتحقق عين المطلوب الذي يدعو به العبد؛ فالاستجابة واقعة لا محالة، أما تحقق ما طلبه العبد على الصورة التي يريدها وفي الوقت الذي يحدده، فهذا محل الحكمة الإلهية، لا محل الوعد المطلق.

وقد نبّه النبي ﷺ إلى هذا التفريق ببيان جامع مانع في الحديث السابق، وتأمل كيف كان رد الصحابة عليهم الرضوان، الذين فقهوا مراد المصطفى عليه الصلاة والسلام، فقالوا: «إذن نُكثِرُ!» (أي نكثر من الدعاء ما دامت الإجابة يقينية)؛ فقال ﷺ: (الله أكثر).

فنبَّه على أن استجابة الدعاء أعم وأوسع من تحقق عين المطلوب المدعو به، فالدعاء المستوفي للشروط مستجاب، لكن نوع الإجابة بحسب ما تقتضيه حكمة الله تعالى؛ فالإجابة متنوعة بين عدة أمور، يختار الله منها ما يصلح للعبد وما هو خير له.

فكيف يمكن للعبد أن يقطع بعدم الاستجابة لمجرد عدم تحقق مراده بعينه؟، قال ابن حجر: «كل داع يستجاب له، لكن تتنوع الإجابة: فتارة تقع بعين ما دعا به وتارة بعِوَضه»[(١)].

> **علينا التفريق بين الاستجابة وتحقق عين المطلوب الذي يدعو به العبد؛ فالاستجابة واقعة لا محالة، أما تحقق ما طلبه العبد على الصورة التي يريدها وفي الوقت الذي يحدده، فهذا محل الحكمة الإلهية، لا محل الوعد المطلق**

## لماذا قد لا يتحقق المطلوب كما نريد؟

هنا ندخل إلى المنطق الإيماني للمسألة، وهي لبّ الإشكال الحقيقي: فالدعاء ليس مقام استحقاق، بل مقام عبودية، وليس معاملة مشروطة، بل تذلل وتسليم.

فمن حيث مقام الرب تبارك وتعالى: الله قادر على كل شيء، لا يعجزه شيء، ولا يُسأل عن حكمه، ولا يُراجع في قضائه، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

لكن محل الامتحان في هذه الدنيا ليس قدرة الله تعالى، بل عبودية العبد: في صدقه، وتسليمه، وحسن ظنه، وثبات قلبه عند تأخر المراد أو عدم حصوله على وجهه، والالتفات إلى صور الإجابة الأخرى، ومنها:

- تربية الإيمان في نفس العبد.
- رفع في الدرجات.
- كشف لصدق العبودية.
- دفع لبلاء أعظم.
- تهيئة لظرف أصلح.
- صرف لما لو أُعطيه العبد لكان فيه هلاكه وهو لا يشعر.

فكل ذلك داخل في معنى الاستجابة، لا خارج عنها. قال ابن الجوزي: «اعلم أن دعاء المؤمن لا يرد، غير أنه قد يكون الأولى له تأخير الإجابة، أو يعوض بما هو أولى له عاجلاً أو آجلاً، فينبغي للمؤمن ألّا يترك الطلب من ربه، فإنه متعبد بالدعاء كما هو متعبد بالتسليم والتفويض»[(٢)].

لذلك حذر النبي ﷺ من الاستعجال في تحقق المقصود المؤدي إلى ترك الدعاء، (لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل)، قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: (يقول: قد دعوت وقد دعوت فلم أرَ يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويَدَع الدعاء)[(٣)]. فدل هذا على أنَّ المذموم هو الاستعجال المؤدي للملل أو اليأس وترك الدعاء.

(١) فتح الباري (١١/٩٥-٩٦).
(٢) نقله عنه الحافظ في فتح الباري (١١/١٤١).
(٣) أخرجه مسلم (٢٧٣٥) والبخاري (٦٣٤٠) مختصرًا.

# قد يكون تحقق الدعاء بأحد الصور الآتية

- تربية الإيمان في نفس العبد
- كشف صدق العبودية
- الرفع في الدرجات
- دفع بلاء أعظم
- تهيئة ظرف أصلح
- صرف لما فيه هلاك العبد
- ادخاره له في الآخرة

> «اعلم أن دعاء المؤمن لا يرد، غير أنه قد يكون الأولى له تأخير الإجابة، أو يعوض بما هو أولى له عاجلاً أو آجلاً، فينبغي للمؤمن ألّا يترك الطلب من ربه، فإنه متعبد بالدعاء كما هو متعبد بالتسليم والتفويض»
>
> ابن الجوزي

## وقفة مع نماذج من أدعية الأنبياء عليهم السلام:

الأنبياء رجال بلغوا الكمال البشري، وهم المقدمون في الأفضلية، ودعاؤهم لا شك أنه مستجاب، ولا غرابة في ذلك؛ فمن ذا الذي يحقق كمال العبودية وكمال التذلل لله عز وجل مثلهم؟ ومن ذا الذي يعلم مواطن إجابة الدعاء وشروطه ولوازمه أكثر منهم، ومن ذا الذي يحققها أفضل منهم؟ ومن خلال تتبع أدعيتهم يظهر أن الاستجابة ليست على صورة واحدة.

### ١- أدعية استجيبت:

وأمثلة أدعية الأنبياء التي استجابها الله كثيرة، من أشهرها دعاء نوح عليه السلام على قومه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾، فجاء الجواب: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٠-١٢].

ومنها دعاء إبراهيم عليه السلام أن يريه الله كيفية إحياء الموتى، فقال له الله تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ومنها دعاء سليمان عليه السلام الذي دعا: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾، فجاءت الاستجابة ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص: ٣٥-٣٧].

ومنها دعاء أيوب بعد أن أنهكه المرض، ودعاء إبراهيم وزكريا بأن يرزقهما الله ولدًا صالحًا فرزق الله إبراهيم بإسماعيل وإسحاق وزكريا بيحيى، والأمثلة كثيرة.

### ٢- أدعية ظاهرها عدم الاستجابة:

وفي المقابل كثيرًا ما يُستشهد بمواقف من حياة الأنبياء عليهم السلام على أنها أمثلة لـــ «عدم» استجابة الدعاء على الوجه الذي أراده الداعي، وقد تورد في سياق تصبير مَن لم تستجب دعوته بالوجه والتوقيت الذي ينتظره؛ ومنطقهم: إذا كان هذا حال الأنبياءِ أكرمِ الخلق على الله، فكيف بمن دونهم؟ والحق أن تحرير هذه الأمثلة يكشف أن معظمها ليس من هذا الباب أصلاً، بل من أبواب أخرى، من ذلك:

**- دعاء سيدنا نوح عليه السلام في ابنه:**

فقد سأل نوحٌ عليه السلام ربَّه أن ينجز له وعده بأنه ينجيه وأهله، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، مستندًا إلى أن ابنه من أهله نسبًا، فجاء البيان الإلهي ﴿قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٦]، أي ليس من أهلك المؤمنين الذين وعدت بتنجيتهم.

فالاستدراك هنا تعليمي تصحيحي، وليس ردًّا ولا حرمانًا، ومن ثم يكون هذا مثالاً على تصحيح فهمٍ خاطئ لمعنى الوعد الإلهي، لا على رد الدعاء!

وكان الرد النبوي بأكمل تسليم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

**- دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام لذريته:**

لما قال الله تبارك وتعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] دعا سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يكون من ذريته أئمة كذلك، فكان الجواب من الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. هذا الجواب ليس رفضًا للدعاء، بل تقييد له بشرط العدل والصلاح، فهو في الحقيقة تأكيد للاستجابة لا نفي لها.

**- استغفار سيدنا المصطفى ﷺ لعمه أبي طالب:**

حرص النبي ﷺ على إسلام عمّه أبي طالب، فدعاه على فراش الموت إلى كلمة التوحيد، فقال: (يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاجّ لك بها عند الله)، فأبى ومات على الكفر.

فلما مات قال ﷺ: (لأستغفرن لك ما لم أنه عنه)[١]، رجاءً لرحمة الله، فنزل قوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ورجح كثير من أهل العلم أن الاستغفار وقع من النبي ﷺ لعمه ورووا في ذلك آثارًا، خصوصًا أن أبا طالب مات قبل الهجرة وسورة التوبة مدنية، ثم لما نزلت الآيات بالنهي عن الاستغفار للكفار امتنع ﷺ[٢]، فكان ذلك توجيهًا تشريعيًا يبيّن أن الاستغفار لمن مات على الشرك غير جائز، لا مثالاً على ردّ الدعاء.

**٣- دعاء استجيب بعضه، وبعضه لم يستجب:**

من الأمثلة المناسبة لتسلية مَن لم تستجب دعوتهم؛ ما جاء في الحديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين، وصلينا معه ودعا ربه طويلاً، ثم انصرف إلينا فقال ﷺ: (سألت ربي ثلاثًا، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة: سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعَنيها)[٣].

ففي هذا الحديث استجاب الله دعاء النبي ﷺ في مسألتين، هما: أن لا يُهلِكَ الأمة بالسَّنة، أي: بالجَدب والقَحط والمَجاعة التي تَستأصِلُهم وتُضعِفُهم، وألّا يُهلِك الله الأمة بالغَرق: كما حصل مع قوم فرعونَ في اليمِّ، وقوم نوح بالطُّوفان، فاستجاب الله لهاتين الدعوتين، لكنه تبارك وتعالى لم يستجب للمسألة الثالثة (أن لا يجعل بأسهم بينهم) أي: ألّا يقَعَ بينهم فُرقةٌ وقتالٌ تُهلِكُهم وتُضعِفُهم، والبأسُ الحروبُ والفتنُ، (فمَنعَنِيها) لم يُجِبْه اللهُ عزَّ وجلَّ في تلك الدعوة؛ لكونِها مُخالفةً لقضائِهِ المُبْرَم ومَشيئتِه التي لا يُسأَلُ عنها[٤]، ولله الحكمة البالغة.

**منشأ الاضطراب الحقيقي:**

لا تجد مسلمًا يستشكل قدرة الله تعالى في إجابة أي دعاء، ولا أن الدعاء في ذاته عبادة، وإنما منبع الاستشكال الحقيقي هو: لماذا يتأخر تحقق الدعاء رغم استكمال شروطه الظاهرة؟

والجواب المختصر:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٤).

(٢) للتوسع ينظر: روح المعاني، للألوسي (٦/٣٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٩٠).

(٤) الشرح مستفاد من موقع الدرر السنية، https://dorar.net/hadith/sharh/20458، وجاء في حديث الترمذي عن خَبَّاب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه أنه صلى اللهُ عليه وسلم، قال: (وسألتُه ألّا يُسلِّطَ عليهم عدوًّا مِن غيرهم، فأعْطانِيها) أي: لا يَكون هلاكهم بعَدوٍّ مِن الكفار يَستبيحُهم، فيَستأصِلُهم ويُضعِفُهم، والمرادُ بذلك ألّا يَغلِبوا المسلمين غَلبةً تَستبيحُ بَيضة الإسلام، وتَستأصِلُ المسلمين جميعًا، فلا يَرِد ما يَحصُلُ في بعض الأحيان مِن غَلَبة بعض أعداء الإسلام على بعضِ المسلمين.

لأن الله تعالى يُربّي عباده بالدعاء، قبل أن يعطيهم الجواب؛ فالدعاء في جوهره تربية قلبية، ومدرسة للتسليم، ومقام للافتقار، وليس مجرد وسيلة لتحقيق المرادات.

المشكلة –إذن– في سوء فهم العبد لموضعه من حيث إنه هو المُمتَحن من الله تبارك وتعالى، وليس مقام الألوهية هو محل الامتحان منه! ولم يقم هذا الوجود لأجل أن يوافق أهواء البشر منه ومراداتهم، بل ليُختبروا في صدق عبوديتهم. ومن لا يدخل على الله تبارك وتعالى مدخل العبودية لم يدخل عليه أصلاً؛ إذ ليس لمقام الألوهية مدخل إلا مدخل العبودية والتسليم.

ومن هنا يمكن إدراك كيف أن بعض التساؤلات حول الدعاء قد تصدر أحيانًا عن فهم ملتبس لطبيعة العلاقة مع الله، حيث يغيب عن القلب مقام العبودية الخالصة، فيُنظر إلى الإجابة على أنها استحقاق له، لا فضلاً ومنّة محضة من الله تعالى عليه؛ فالأمر كله بيد الله وحده، والملك ملكه، والفضل فضله، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

ومن مداخل الاضطراب في الدعاء كذلك: الدخول على الله تعالى مدخل المتشكك المتذبذب، لا بمعنى الجحود الصريح لقدرة الله تعالى على الإجابة، بل هي حالة نفسية دقيقة يتلبّس بها العبد وهو لا يكاد يشعر؛ فيدعو الله بلسانه، لكن قلبه معلّق بالحسابات والاحتمالات، يراقب الزمن، ويقيس الإجابة على الصورة التي رسمها لنفسه، فإن تأخرت أو جاءت على غير مراده اضطرب يقينه؛ فهو يسأل لكن بروح المجرّب لا بروح المتوكّل، ينتظر الاستجابة ليطمئن، لا يطمئن فينتظر.

وقد حذّر النبي ﷺ من هذا المعنى حين قال: (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ)[1]، لأن التردد في الرجاء يقطع مدد الطمأنينة، ويحوّل الدعاء من عبادة خضوع إلى معاملة مشروطة، بينما حقيقة العبودية أن يسكن القلب إلى حكمة الله قبل ظهور العطاء، وأن يثق أن تأخير الإجابة أو صرفها لونٌ من ألوان العناية، لا علامة إعراض.

> **منشأ الاضطراب ليس في قدرة الله ولا في صدق وعده، بل في تصور العبد لمعنى الإجابة، وفي دخوله على الدعاء بروح الاستحقاق أو التردد**

## كيف نصحح منهج دعائنا ليكون تعبّدًا لله تعالى لا تأمّرًا عليه؟

البداية من تصحيح موضع العبد من ربه، وتصحيح فهمه لوعد الله بالاستجابة، فقد أخبر المصطفى ﷺ في الحديث: (لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يَدْعُ بإثم، أو قطيعة رحم، ما لم يَسْتَعْجِل) قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: (يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أر يستجيب لي، فَيَسْتَحْسِرُ عند ذلك ويَدَعُ الدعاء)[2].

وتأمل في هذا المثال: فقير يقف على باب الكريم، لا يأتيه مرة واحدة ثم ينصرف، بل يلازم بابه، ويُظهر فقره، ويُكرر رجاءه، واثقًا بجود مَن يقصده، فليس مجرد الوقوف على الباب هو المقصود، وإنما دوام التعلّق، وحسن الظن، ومعرفة أن العطاء فضلٌ لا استحقاق. وكذلك الدعاء؛ قيمته في صدوره عن قلب منكسِر متعلّق بالله، يُلحّ ولا يملّ، ويعلم أن الفتح يأتي في الوقت الذي يقدّره الله، لا في الوقت الذي يريده العبد.

ولله تبارك وتعالى المثل الأعلى؛ فإذا حصل لك مراد، فليس ذلك لمجرد أنك طلبته، وإنما مردّه إلى مشيئة الله وحده، لا إلى سبب سواه. ولذلك فليست حقيقة الدعاء في مجرد طلَب المطلوب، بل في قيامك بالعبودية عند السؤال؛ فتكون حاجات العبد ومراداته وأهواؤه سببًا في رجوعه إلى الله تعالى، وتوسّله إليه، وتقرّبه إلى مقام الألوهية؛ فبحسب ما يظهر من صدق عبوديتك وتعدد وجوه تذللك وافتقارك، يكون ترقيك في مراتب العبودية وتحققك بها، ومحبة الله تعالى لك.

والله تبارك وتعالى مُطَّلع على السرائر، وهو العليم الخبير اللطيف بعباده، فهو يمنع ويمنح وفق حكمته المطلقة وحكمه المطلق، فلا يُسأل ولا يُساءَل. إلا أننا في زمن يرفض فيه كثير من الناس لزوم حدّ العبودية، فيسائلون الله عمّا لم يُؤتَوا، ولا يسائلون أنفسهم عمّا أُعطوا. نرى

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٥) والبخاري (٦٣٤٠) مختصرًا.

أنفسنا مستحقين للنعم التي نلناها، ومستحقين لما لم ننله، وغير مستحقين للابتلاء، مع أن الإسلام يفرض علينا أدب العبد الذي يوقن أنه لا يملك من الأمر شيئًا.

وبدل أن ندخل على الله تبارك وتعالى مدخل المتشرط المستحق، أو مدخل المتشكك المتذبذب قاطع الرجاء والأمل، ينبغي أن ندخل عليه مدخل العبد الذي يطمع طمع العبد، فيسأل المالك من ملكه، ويرجوه رجاء العبد الذي يوقن أن سيده لا يريد به إلا خيرًا، وأن كل ما يقضي به خير، وكل ما يكون من الجميل جميل.

هذه كلها من الآداب القلبية التي يُرجى من عبادة الدعاء أن تربيها وتنميها في قلب الداعي؛ فيُخلِص النيّة لله وحده، ويُقبل على الدعاء بقلبٍ حاضر خاشع، ويُلحّ في الدعاء بتكراره وتجديد شعور الافتقار في نفسه، من غير استعجال للاستجابة ولا سآمة من جدوى الدعاء، بل مع حسن الظن بالله، والتسليم لاختياره وحكمته، عالمًا أن الله أعلم بمصالح عباده من أنفسهم.

ثم على الداعي التزام الآداب العملية التي دلّ عليها الشرع وهدي السلف؛ فيبدأ بحمد الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله، ثم يُصلّي على نبيه ﷺ، ثم يذكر حاجته ويسأل ربّه ما شاء من خير الدنيا والآخرة، فإذا فرغ من دعائه ختمه بحمد الله تعالى والصلاة على نبيّه ﷺ، راجيًا القبول، مسلّمًا الأمر إلى الله.

## موانع إجابة الدعاء:

يجب التنبه إلى الموانع التي تحول دون قَبول الدعاء، بل وقد تكون سببًا لغضب الله على العبد، كأن يكون مَطعم العبد أو مَكسبه من حرام أو فيه شبهة؛ فإن لذلك أثرًا بالغًا في حجب الدعاء، ومنها الاعتداء في الدعاء، إما بسؤال ما لا يليق، أو بتكلّف الألفاظ، أو بتجاوز حدود الأدب مع الله، كالدعاء بإثم أو إعانة على معصية أو تيسير حرام أو قطيعة رحم ... إلخ. وفي المقابل، يستحب تحري أوقات الإجابة التي ورد بها الشرع، كأوقات السَّحَر، وبين الأذان والإقامة، وفي السجود، وحال الصيام؛ فيُكثر فيها من الدعاء، وهو على يقين بأن الله يسمع دعاءه، ويعلم حاله، ويختار له ما هو أصلح له في دنياه وآخرته[1].

> **ليست حقيقة الدعاء في مجرد طلب المطلوب، بل في قيامك بالعبودية عند السؤال، والثقة بأن العطاء فضلٌ لا استحقاق**

## ختامًا:

إن الله تبارك وتعالى هو السميع القريب، يتقبّل الدعاء ويجيب عباده على ما تقتضيه حكمته ورحمته، متى التزم الداعي آداب الدعاء ومقامه المشروع، فالأمر من جهة الرب جلّ وعلا منتهٍ إلى كمال العلم والحكمة والعدل، وليس للعبد الاشتغال بما في مقام الرب تبارك وتعالى، وإنما يبقى النظر كلّه إلى جهة العبد: إلى صدق عبوديته، وحسن وقوفه بين يدي ربّه، وقيامه بمعنى الافتقار والتسليم.

وحينئذٍ لا يكون السؤال عند الدعاء: هل أُعطيتُ عين ما سألت؟ بل: كيف دعوتُ، وبأي قلبٍ وقفتُ، وعلى أي حالٍ قمتُ بين يدي الله؟

ومن قدَر الله حقّ قدره بقي دائمًا خائفًا من تقصيره هو، لا شاكًّا في وفاء ربه.

(١) لمزيد تفصيل في آداب الدعاء وحيثياته، ينظر: الجواب الكافي، لابن القيم. و: صيد الخاطر، لابن الجوزي، فصل: امتناع إجابة الدعاء. و: غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، للسفاريني، مطلب في آداب الدعاء، و: آداب الدعاء، ليوسف المقدسي. ورسائل ابن رجب الحنبلي.

# قلق الذكاء الاصطناعي برؤى غربية

د. محمد بن عبدالله السلومي (*)

**لم يعد السؤال اليوم: ماذا قدّم الذكاء الاصطناعي للبشرية؟ بل: ماذا قد يأخذ منها؟ ففي الوقت الذي تتسارع فيه الخوارزميات لتعيد تشكيل الاقتصاد والسياسة والعلاقات الإنسانية، ترتفع من داخل وادي السيليكون نفسه أصوات تحذّر من مستقبلٍ قد لا تملك البشرية مفاتيحه. المفارقة أن القلق لا يأتي من خصوم التقنية، بل من صانعيها ومموليها. فهل نحن أمام أعظم أداة في تاريخ الإنسان... أم أمام قوة قد تتجاوز قدرتنا على ضبطها؟**

يعيش العالم تقدمًا مذهلاً في التقنية وأدواتها، وقد اختصرت هذه التقنية المسافات الزمنية والمكانية وأصبحت جُزءًا أساسيًا من الحضارة أو المدنية المعاصرة، وهذه التقنية بعموم صناعاتها تُعد من الهدايا الثمينة للبشرية، ومنها ما حققه الذكاء الاصطناعي -Artificial Intelligence- (AI) في العالم من قفزات مذهلة وفرص كثيرة، لكن الموضوع هنا ليس معنيًا بالفُرص بقدر ما يُعنى بالتحديات التي تُصاحب هذا الذكاء من خلال بعض الآراء وخصوصًا الغربية؛ حيث صرح الملياردير إيلون ماسك: «إن ChatGPT يُظهر أن الذكاء الاصطناعي قد تقدم بشكل لا يصدق، وإنه شيء يجب أن نقلق جميعًا بشأنه»[1]، وتأتي هذه التنبيهات من رواد التقنية وصُناعها والمستثمرين فيها لتمنح القارئ رؤية شاملة، فضلاً عن رؤية المستهلكين، وهو ما يلفت الانتباه إلى أهمية الاستفادة من هذه الثورة المعلوماتية وتوظيفها بالصور النظيفة مع الحذر من مخاطرها الكبيرة والتي ولَّدَت مصدر قلق لديهم.

(*) باحث في الدراسات التاريخية ودراسات العمل الخيري والقطاع الثالث.

(١) (إيلون ماسك يحذر من خطر يهدد الحضارة.. «أشد من النووي»!)، موقع قناة العربية، بتاريخ ١٦ فبراير ٢٠٢٣م، الرابط التالي: https://tinyurl.com/m٣٢٣٢zmm.

**الذكاء الاصطناعي لم يعد مجرّد أداة تقنية، بل تحوّل إلى سؤال حضاري مفتوح: من الذي يملك زمام من... الإنسان أم الآلة؟**

ومن تحديات هذه التقنية وذكائها ما حدث في التاسع عشر من يوليو ٢٠٢٤م، حينما تعطلت في لحظة واحدة كثير من مرافق الحياة في بعض الدول مجتمعةً عندما اختل تحديث أحد البرامج للأمن السيبراني الذي توفره شركة (Crowdstrike)، وبالرغم من أنها ناتجة عن خطأ بشري إلا أن هذا الخطأ قد يتكرر ويُشكِّل حالات متوقعة من تكرار تعطل برمجيات الأمن السيبراني، ولذا فالتقنية والاعتماد عليها بإسراف تُعدُّ ذات مخاطر مفاجئة تُهدد بتحولات كبرى في الحياة العالمية القائمة عليها بمستشفياتها وشركاتها وأسواقها وصناعاتها وبنوكها ومطاراتها وغير ذلك.

يتخوف كبار الرأسماليين وصُناع التقنية من المستقبل المجهول للذكاء الاصطناعي، حيث يُشير مقال كتبه جورج سوروس -وهو الشخصية المؤثرة بالرغم مما يُذكر عنه من ممارسات غير أخلاقية في تعاملاته الرأسمالية، والذي عاش التقنية واستفاد منها- بعنوان: (هل تنجو الديمقراطية من الأزمات المتعددة المتزامنة؟ Can Democracy Survive the Polycrisis) عن أزمة التقنية في هذا الزمن المتسارع والمربك ودخول عالم الذكاء الاصطناعي الذي هو من مسببات هذه الأزمة في اعتقاده[١]، وهذا مما قد يعكس أن التحديات والمخاطر في استخدام هذا الذكاء تؤثر في مطلق الفرص والإيجابيات التي يتيحها!

ومن اللافت أن جيفري هينتون استقال من Google، وهو الذي يُعَدُّ الأب الروحي للذكاء الاصطناعي في الشركة، حتى يتسنى له أن يتحدث بصراحة عن المخاطر التي تفرضها التكنولوجيا الجديدة، وبالتراجع عن موقفه السابق اتخذ نظرة شديدة التشاؤم للذكاء الاصطناعي قائلاً: إنه قد يُدمِّر حضارتنا![٢]، فهل هينتون مهندس الذكاء الاصطناعي في Google رأى حجم المخاطر فتجنبها وأصبح مُحذِّرًا منها؟

وحسب فوكس بيزنس الأمريكية حذر هينتون كذلك من مخاطر الذكاء الاصطناعي، وعلى وجه التحديد أنظمة الأسلحة ذاتية التشغيل بالكامل، أو كما أسماها جنودَ الروبوتات القاتلة: «لقد دخلنا إلى منطقة مجهولة تمامًا، نحن قادرون على بناء آلات أكثر منا قوة، لكننا لا نزال نفرض عليها سيطرتنا. ولكن ماذا لو طَوَّرنا آلات أكثر منا ذكاءً؟ سوف يستغرق الأمر بين خمسة إلى عشرين عامًا قبل أن يتفوق الذكاء الاصطناعي على الذكاء البشري»[٣].

ووفقًا لنتائج الاستطلاع التي تمت مشاركتها حصريًا مع شبكة CNN قال جيمي ديمون الرئيس التنفيذي لشركة جيه بي مورغان ساكس عن التأثير الكامل الذي سيحدثه الذكاء الاصطناعي على الأعمال التجارية أو الاقتصاد أو المجتمع: «إن ٤٢٪ من الرؤساء التنفيذيين الذين شملهم الاستطلاع في قمة الرؤساء التنفيذيين بجامعة ييل قالوا: إن الذكاء الاصطناعي لديه القدرة على تدمير البشرية بعد خمس إلى عشر سنوات من الآن! فهناك جهات فاعلة سيئة تستخدم الذكاء الاصطناعي، لمحاولة التسلل إلى أنظمة الشركات لسرقة الأموال، والملكية الفكرية، أو ببساطة للتسبب في التعطيل والضرر»[٤].

كما وصف جيفري سونينفيلد الأستاذ في جامعة ييل النتائج بأنها: «مُظلمة ومثيرة للقلق للغاية». ووقَّع العشرات من قادة صناعة الذكاء الاصطناعي والأكاديميين وبعض المشاهير على بيان يُحذر من خطر (الانقراض) بسبب الذكاء الاصطناعي! ووفقًا لصندوق النقد الدولي فإن ما يقرب من ٤٠٪ من التوظيف العالمي يمكن أن يتعطل بسبب الذكاء الاصطناعي[٥].

---

(١) (هل تنجو الديمقراطية من الأزمات المتعددة المتزامنة؟)، جورج سوروس، ترجمة: إبراهيم محمد علي، موقع بروجيكت سنديكيت (Project Syndicate)، بتاريخ ٦ يونيو ٢٠٢٣م، الرابط التالي: https://www.project-syndicate.org/commentary/can-democracy-survive-polycrisis-artificial-intelligence-climate-change-ukraine-war-by-george-soros-2023-06

(٢) المرجع السابق.

(٣) (هينتون يصدر تحذيرًا آخر بشأن الذكاء الاصطناعي: العالم بحاجة إلى إيجاد طريقة للسيطرة على الذكاء الاصطناعي)، فوكس بيزنس، بتاريخ ١٣ مايو ٢٠٢٣م، الرابط التالي: https://www.foxbusiness.com/technology/hinton-issues-another-ai-warning-world-needs-way-control-artificial-intelligence

(٤) (وارن بافيت يشبه الذكاء الاصطناعي بالسلاح النووي.. وينضم لقافلة المحذرين)، سي إن إن الاقتصادية، بتاريخ ٧ مايو ٢٠٢٤م، الرابط التالي: https://tinyurl.com/369udyd4.

(٥) المرجع السابق.

> «لقد دخلنا إلى منطقة مجهولةٍ تمامًا، نحن قادرون على بناء آلات أكثر منا قوة، لكننا لا نزال نفرض عليها سيطرتنا. ولكن ماذا لو طَوَّرنا آلات أكثر منا ذكاءً؟ سوف يستغرق الأمر بين خمسة إلى عشرين عامًا قبل أن يتفوق الذكاء الاصطناعي على الذكاء البشري»
> جيفري هينتون

## الخروج عن السيطرة:

صرَّح سوروس بأن الذكاء الاصطناعي لن يُمكِّن قادة تغيير العالم من تشكيله كما يريدون، وبالتالي سيفقدون السيطرة عليه، وذلك بقوله: «نحن البشر نُـعَـد مشاركين ومراقبين في العالَـم؛ حيث نعيش كمشاركين نرغب في تغيير العالَـم لصالحنا، وكمراقبين نريد فهم الواقع على حاله. يتداخل كل من هذين الهدفين مع الآخر»[١].

كما أن بيل غيتس وبالرغم من ممارساته الرأسمالية، وحديثه الإيجابي في مدونته الخاصة به حول رؤيته لمستقبل الذكاء الاصطناعي، إلا أنه حذر كثيرًا من «احتمال أن تخرج أنظمة الذكاء الاصطناعي عن السيطرة! هل يمكن لآلة أن تقرر أن البشر يشكلون تهديدًا؟»[٢]. وخلال مقابلته مع شبكة (سكاي نيوز) البريطانية، علق بأن الذكاء الاصطناعي «يُستخدم في الغالب من قبل أشخاص ذوي نيات حسنة. لكن هذه التقنية يمكن أيضًا أن تُستخدم بشكل خاطئ»[٣]. أما وارن بافيت فيرى أن لدى الذكاء الاصطناعي إمكانات هائلة للخير، وقد تتوسع معه أعمال الاحتيال[٤].

ومن تلك الأصوات البارزة في مناقشة الذكاء الاصطناعي إيلون ماسك الرئيس التنفيذي لشركة تسلا والمالك لمنصة إكس، الذي حذر كثيرًا من التهديد الوجودي الذي تشكله أنظمة الذكاء الاصطناعي المتقدمة. واقترح أنه إذا تجاوز الذكاء الاصطناعي الذكاء البشري دون لوائح مُنظِّمة، قد يؤدي ذلك إلى سيناريوهات تتخذ الآلات قرارات تتعلق بالحياة والموت دون إشراف بشري، ومن ذلك قوله: «إن هناك إجماعًا ساحقًا على ضرورة وضع لوائح تَحكم الذكاء الاصطناعي»، وذلك عقب اجتماع ضم كبار الشخصيات في قطاع التكنولوجيا في واشنطن لمناقشة هذه القضية المهمة[٥]. وخلال القمة العالمية للحكومات في دبي قال ماسك: «أحد أكبر المخاطر على مستقبل الحضارة هو الذكاء الاصطناعي»[٦].

وأسهم الفيلسوف السويدي الأستاذ في جامعة أوكسفورد نيك بوستروم بشكل كبير في فهم مخاطر الذكاء الاصطناعي في كتابه (الذكاء الخارق: المسارات والمخاطر والاستراتيجيات)، خاصةً تحديات السيطرة والتوافق مع القيم الإنسانية. ولذلك فمن الضروري إعطاء الأولوية للاعتبارات الأخلاقية والحوكمة المسؤولة لضمان أن يعود الذكاء بالنفع على المجتمع ككل، مع تقليل المخاطر المحتملة إلى أدنى حد. كما أن استخدام الذكاء الاصطناعي في الأسلحة يفرض معضلات أخلاقية، ويمكن لأنظمة الأسلحة المستقلة أن تُمارس سلطة استخدام القوة القاتلة بصورةٍ مستقلة.

> يكمن خطر الذكاء الاصطناعي في تحوّله إلى منظومةٍ ذاتية القرار تتجاوز قدرة الإنسان على الضبط والتوجيه. فكلما اتسعت استقلالية الخوارزميات، تقلّص هامش السيطرة البشرية، وازداد احتمال أن تتطور في اتجاهاتٍ لا تعكس نوايا مصمّميها؛ نتيجة تفاعلاتها الذاتية المعقّدة

## الذكاء الاصطناعي والقيم المجتمعية:

أعرب مفكر مؤثر هو ستيفن هوكينج أيضًا عن مخاوفه بشأن مستقبل الذكاء الاصطناعي، حيث قد تتصرف الآلات بطرق غير متوافقة مع القيم والأخلاق

(١) (هل تـنـجـو الديمقراطية من الأزمات المتعددة المتزامنة؟)، مرجع سابق.
(٢) (عهد جديد لقد بدأ عصر الذكاء الاصطناعي)، بيل غيتس، بتاريخ مارس ٢٠٢٣م، الرابط التالي: http://www.saudix.org/billgates/.
(٣) (بيل غيتس: يجب أن يستخدم الذكاء الاصطناعي أشخاص «ذوو نيات حسنة»)، صحيفة الشرق الأوسط، بتاريخ ٢٧ يونيو ٢٠٢٤م، الرابط التالي: https://tinyurl.com/nhazm969.
(٤) (وارن بافيت يشبه الذكاء الاصطناعي بالسلاح النووي.. وينضم لقافلة المحذرين)، سي إن إن الاقتصادية، بتاريخ ٧ مايو ٢٠٢٤م، الرابط التالي: https://tinyurl.com/369udyd4.
(٥) (إيلون ماسك يؤكد وجود «إجماع ساحق» على إخضاع الذكاء الاصطناعي للقانون)، جيمس كلايتون، بي بي سي عربية، بتاريخ ١٤ سبتمبر ٢٠٢٣م، الرابط التالي: https://www.bbc.com/arabic/articles/c6p6d68l6v6o.
(٦) (إيلون ماسك يحذر من خطر يهدد الحضارة..«أشد من النووي»!)، موقع قناة العربية، بتاريخ ١٦ فبراير ٢٠٢٣م، الرابط التالي: https://tinyurl.com/m3r32zmm.

الإنسانية. وركزت شيري توركل عالمة الاجتماع وعلم النفس على الآثار الاجتماعية للذكاء الاصطناعي، بتسليط الضوء على كيفية تأثير الاعتماد على الذكاء الاصطناعي على العلاقات الإنسانية والتواصل؛ حيث يمكن فقدان المهارات الشخصية الأساسية، مما قد يقلل من ذكائنا العاطفي وتعاطفنا.

وما ورد سابقًا يتوافق أو يتقاطع إلى حدٍّ كبير مع ما كتبه أستاذ نظريات الإعلام والاقتصاد الرقمي دوجلاس راشكوف Douglas Rushkoff، عن هَلْوَسة بعض تجار التقنية وتخوفاتهم عند مقابلتهم، وكيفية النجاة من مآلات كارثة كبيرة قادمة لا محالة ناتجة عن الإسراف في صناعة التقنية، وهي المخاطر التي صنعتها استثماراتهم ومشاريعهم وشركاتهم العملاقة حسب تعبيره، وبصورة أهمّ رؤية أثرياء التقنية لمستقبل العالم، وذلك في كتابه (البقاء للأكثر ثراءً – أوهام الهروب لدى ملياردريات التكنولوجيا – Survival of the Richest: Escape Fantasies of the Tech Billionaires)؛ حيث سياسات وادي السيليكون التكنولوجي وتداعياتها، ومن ذلك حسب إحدى التعريفات بالوادي والكتاب: «ذهنيّة وادي السيليكون: هذا النزوع للهروب من الواقع ومشكلاته، وترك الجميع خلفهم هو ما يسمّيه راشكوف (الذهنيّة The Mindset)، إذ إنّها سرديّة راسخة، ومهيمنة على وادي السيليكون، كما أنّها تُؤسّس بطبيعة الحال للسياسات والممارسات السائدة في عوالم التقنية، ولها تداعياتها على الاقتصاد والاجتماع والسياسة»[١].

ويؤكد كتاب راشكوف على أن التقنية المُنفلتة خطرٌ اجتماعي وأخلاقي على المجتمعات والدول، ومن ذلك ما ورد حول طرائق استخدام العلوم ومنجزاتها تجاه الغايات الاجتماعية المفيدة والعادلة؛ حيث تؤدّي هذه النزعة التقنية إلى فصل العلوم عن سياقات القيم والأخلاق، ومن ثمّ تحويلها إلى أداة للهيمنة؛ فالعلم التقني المعاصر يُعامل الإنسان كالروبوت، أو كمحض آلة مرتهنة بالجينات، ومن ثمّ تنزع الفاعلية والمسؤولية الأخلاقية عن البشر[٢].

> **حين يدخل الذكاء الاصطناعي إلى مجال العلاقات والهوية والجسد والعدالة، فإنه لا يقدّم حلولاً تقنية فقط، بل يعيد برمجة التصورات الاجتماعية نفسها، وحينها من الروبوتات الحميمية إلى الخوارزميات المتحيزة، تتكشف أزمة تتجاوز الأداء الوظيفي إلى إعادة تعريف الإنسان داخل منظومةٍ تُختزل فيها الخبرة البشرية إلى بيانات**

بل إن مؤلف الكتاب يُناقش مخاطر أخرى لهذه التقنية، بأنها أداة استعمارية لاحتلال البلدان والعقول الإنسانية، وذلك بالقول: «كما تتماثل أفكار التقدّم، والانتشار، والنطاق الشاسع التي تقوم عليها ذهنية وادي السيليكون مع أفكار الاستعمار والغزو والنمو التي سادت أوروبا في عصر التنوير؛ فالشركات الكبرى تتعامل بمنطق احتلالي استعماري، وتنظر إلى التطور التكنولوجي كأداة للربح والاستغلال، والهيمنة والنمو المتزايد»[٣].

ويُكرر راشكوف نقده اللاذع لذهنية وادي السيليكون وممارسات الشركات الكبرى، التي تختزل قيمة الإنسان والإنسانية فيما يُسمى بالرقمنة والأتمتة والتكويد للإنسان أي يمكن التعامل معه كصفر أو واحد. لذا تصير (البيانات) أهمّ ممّن جُمعت حولهم هذه البيانات! ويتماهى هذا التوجّه المُهيمن على عوالم التقنية مع النزعة الرأسمالية لتحويل كلّ شيء إلى ما يمكن بيعه وشراؤه، وتداوله في الأسواق[٤]. والأخطر في هذا حسب تعبير مؤلف الكتاب أن مآلات هذه التقنية، ومنها الذكاء الاصطناعي سوف تحوّل حياتنا إلى آلة تدور حول نفس النسق، وتحجب ما عداه من خيارات وأنظمة للفكر[٥].

إن أكثر ما يقلق المجتمعات هو مخاطر الذكاء الاصطناعي على القيم والأخلاق والحياة الاجتماعية والأسرية، وتأتي هذه المخاوف من بعض فئات صانعي ومصدري هذا الذكاء للعالم، ومن الأمثلة على ذلك: توفير الذكاء الاصطناعي

(١) (نهاية العالم وأحلام الهروب: بماذا يُفكّر ملياردريات التكنولوجيا الفائقة؟)، أميرة عكارة، موقع حبر، بتاريخ ٦ كانون الأول ٢٠٢٢م، الرابط التالي: https://tinyurl.com/75ev6j.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق

(٥) المرجع السابق

## مستويات مخاطر الذكاء الاصطناعي

**ما الضابط؟ (معايير أخلاقية + تشريعات وحوكمة + شفافية + مساءلة + رقابة بشرية)**

لما يُعرف بصناعة الروبوتات الشبيهة بالبشر (Humanoids) المخصصة للمعاشرة الجنسية، لقد بلغ سوق التقنيات الجنسية ٣٠ مليار دولار في عام ٢٠٢٠م، وقد ازدهر هذا السوق أكثر وفقًا للباحثة الأمريكية كيت ديفلين (Kate Devlin) في كتابها «مُثار جنسيًّا: العلوم والجنس والروبوتات» (Turned On: Science, Sex and Robots). ويرى كثير من مؤيدي فكرة الجنس مع الآلة أن هذا التوجه يسهم في معالجة غلاء المعيشة والأزمات الوجودية المتراكمة مثل الوحدة القاتلة والخيبة المزمنة من الرفقة البشرية! وللإجابة عن التساؤلات الأخلاقية المثارة تقول ديفلين: «إذا أردنا حقًا أن نبتكر نظام ذكاء اصطناعي يحاكينا، ويجارينا، ويفهمنا بصفتنا بشرًا، فلا بد لهذا النظام من استيعاب تجربتنا الجنسية، والتي تطورت عبر آلاف السنين لتصل بنا إلى ما نحن عليه اليوم»[١].

ووفقًا لما تنبأ به البروفيسور ديفيد ليفي David Levy في كتابه الشهير (الحب والجنس مع الروبوتات Love and Sex with Robots) الصادر عام ٢٠٠٧م ، تفترض أطروحته (العلاقات الحميمة مع الشركاء الاصطناعيين Intimate Relationships With Artificial Partners) أن الروبوتات ستصبح شبيهة بالبشر في المظهر والوظيفة والشخصية؛ لدرجة أن الكثير من الناس سيقع في حبها، وممارسة الجنس معها، بل وحتى الزواج منها، حيث قال ليفي: «قد يبدو الأمر غريبًا بعض الشيء، لكنه ليس كذلك»، وقال: «الحب والجنس مع الروبوتات أمر لا مفر منه»[٢]، ويُعتبر هذا التوقع مؤشرًا على أن مفهوم الأخلاق يواجه تحديًا صادمًا للبشرية في سياق الحياة الغربية والنظام الرأسمالي.

ويُبدي الناقدون -وفقًا للمنظور الأخلاقي الرأسمالي- قلقهم من أن روبوتات الحب والجنس قد تسبب ضررًا لمهنة الدعارة، والعاملين فيها، وسوقها الاقتصادي حسب الدكتورة كاتلين ريتشاردسون Kathleen Richardson المناهضة لروبوتات الجنس[٣]! وهو ما يُعيد مجددًا (تعريف الأخلاقي في الحضارة الغربية).

يمثل هذا الروبوت أحد الأمثلة العديدة على التحديات الاجتماعية والأخلاقية التي يفرضها الذكاء الاصطناعي، ومن المتناولين للمسألة براين

(١) (خوارزم للحُب: متى سنتزوج الروبوتات؟)، أشرف فقيه، موقع ثمانية، بتاريخ ٢٩ ديسمبر ٢٠٢٢م، الرابط التالي: https://thmanyah.com/post/22132_1jhggnmybp.

(٢) مقالة: توقّع: الجنس والزواج مع الروبوتات بحلول عام ٢٠٥٠، Forecast: Sex and Marriage with Robots by 2050, 12 Oct ٢٠٠٧: على الموقع الإخباري العلمي لايف ساينس، https://www.livescience.com/1951-forecast-sex-marriage-robots-2050.htm.

(٣) (الروبوتات الجنسية.. ثورة تكنولوجية أم انحدار أخلاقي)، صحيفة العرب، بتاريخ ٦ فبراير ٢٠١٧م، الرابط التالي: https://tinyurl.com/ysdscpb4.

غرين Brian Green، الباحث في أخلاقيات الذكاء الاصطناعي وتبعاته الخطيرة بجامعة سانتا كلارا، الذي أشار إلى المخاطر التي تهدد «الجانب الفلسفي والديني حول تغيير هذه التكنولوجيا لمصيرنا ودورنا نحن البشر في هذا الكون»[١]. وفيما يتعلق بحجم المخاطر الأخلاقية، يختتم غرين إحدى مقالاته بقوله: «نظرًا لقوتنا التكنولوجية المتزايدة، نحتاج إلى إيلاء المزيد والمزيد من الاهتمام للأخلاقيات، إذا أردنا أن نعيش في مستقبل أفضل وليس أسوأ»[٢]، ويُعدُّ هذا من مخاطر ما يُسمى الانقراض البشري، الناتج عن الاستغناء عن العلاقات البشرية لصالح الروبوتات الجنسية!

ومن المعضلات الأخلاقية ما تفعله الخوارزميات العنصرية؛ فقد أثبتت الدراسات تحيز أنظمة التعرف على الوجه ضد أصحاب البشرة الداكنة، مما يهدد العدالة الجنائية ومجالات التوظيف[٣]. بالإضافة إلى ذلك، هناك توليد الصور ومقاطع الفيديو المُضلِّلة التي تصور عنفًا وفقرًا غير حقيقيين، وهو ما يثير مخاوف أخلاقية ومشاكل اجتماعية تتعلق باستغلال المشاعر والعواطف، بل وابتزاز منظم قائم عليها للحصول على مبالغ طائلة[٤].

**إن أكثر ما يقلق المجتمعات هو مخاطر الذكاء الاصطناعي على القيم والأخلاق والحياة الاجتماعية والأسرية، وتأتي هذه المخاوف من بعض فئات صانعي ومصدري هذا الذكاء للعالم**

## الذكاء الاصطناعي ينتقد نفسه:

عند سؤال الذكاء عن نفسه وعن المخاطر المستقبلية المحتملة والتحديات والآثار الأخلاقية من أقوال وتصريحات ناقدة ومحذرة من هذا الذكاء، أجاب: إن العديد من المفكرين والعلماء الغربيين أسهموا في الخطاب حول المخاطر التي يفرضها الذكاء الاصطناعي، مؤكدين على الحاجة إلى البحث والتنظيم الدقيقين.

وعن مدى الاعتماد على نتائج الذكاء الاصطناعي في جوانب الحياة غير المادية خاصة التربوية والأخلاقية والشرعية، كان الجواب من تطبيق (Gemini) ضمن تطبيقات قوقل للذكاء الاصطناعي: «الذكاء الاصطناعي ماهر في التعرف على الأنماط والتنبؤات، لكنه لا يفهم المعنى الحقيقي للكلمات والجمل بنفس الطريقة التي يفهم بها الإنسان. هذا يعني أنه قد يرتكب أخطاء منطقية أو يقدم معلومات غير دقيقة». ويُشخِّص سوروس حقيقة هذا الذكاء وأخلاقياته مع صعوبة الحلول بقوله: «الذكاء الاصطناعي شديد البراعة في إنتاج المعلومات المُضلِّلة والأكاذيب العميقة، وسوف يشارك في الأمر عدد كبير من الجهات الخبيثة! أتمنى أن تحظى هذه القضية بالقدر الذي تستحقه من الاهتمام»[٥].

وفي استطلاع أجراه المنتدى الاقتصادي العالمي World Economic Forum في يناير عام ٢٠٢٤م جاء تصنيف المعلومات الخاطئة والمضللة الناتجة عن الذكاء الاصطناعي وانتشارها كأكبر خطر عالمي يهدد البشرية في الأعوام المقبلة[٦]. هذا في أمور الدنيا، فكيف هو في أمور القِيَم والدين والشرع؟!

ويُمكن التعليق على هذه الإجابات والنتائج المجتزأة بالقول: إن الاعتماد على هذا الذكاء خاصة في الجوانب التربوية والأخلاقية والمسائل الشرعية والفقهية له مخاطر؛ فالمدخلات تنعكس على المخرجات؛ حيث البيانات غير المتوازنة تخلق

(١) (المعضلة الأخلاقية للذكاء الاصطناعي)، الجزيرة نت، بتاريخ ٥ نوفمبر ٢٠١٨م، الرابط التالي: https://tinyurl.com/9xhsr6jj

(٢) مقالة: ما هي أخلاقيات التكنولوجيا؟What is Technology Ethics?: ٢٠٢٦ ، على موقع مركز أبحاث وتوعية الأخلاقيات التطبيقية التابع لجامعة سانتا كلارا /https://www.scu.edu/ethics/focus-areas/technology-ethics/resources/what-is-technology-ethics.

(٣) technology/facial-/٠٩/٠٢/٢٠١٨/https://www.nytimes.com :٢٠١٨ Feb ٠٩ ,Facial Recognition Is Accurate, if You're a White Guy recognition-race-artificial-intelligence.html.

(٤) مقالة: صور زائفة من «إباحية الفقر» مُولَّدة بالذكاء الاصطناعي تُستخدَم من قِبل وكالات الإغاثة، صحيفة الغارديان، AI-generated 'poverty porn' fake images being used by aid agencies, The Guardian, ٢٠ Oct ٢٠٢٥: https://www.theguardian.com/global-development/2025/oct/20/ai-generated-poverty-porn-fake-images-being-used-by-aid-agencies.

(٥) هل تنجو الديمقراطية من الأزمات المتعددة المتزامنة؟، جورج سوروس، ترجمة: إبراهيم محمد علي، موقع بروجيكت سنديكيت (Project Syndicate)، بتاريخ ٦ يونيو ٢٠٢٣م، الرابط التالي: https://www.project-syndicate.org/commentary/can-democracy-survive-polycrisis-artificial-intelligence-climate-change-ukraine-war-by-george-soros-2023-06/arabic

(٦) المنتدى الاقتصادي العالمي: تأثير الذكاء الاصطناعي على الانتخابات يعد التهديد الأكبر عالميًا في ٢٠٢٤، منصة أرقام، بتاريخ ١٠ يناير ٢٠٢٤م، الرابط التالي: https://www.argaam.com/ar/article/articledetail/id/1696981.

تحيزات في التنبؤات والنتائج، ويمكن بهذا للذكاء الاصطناعي أن ينتج نتائج مغلوطة، وفي غياب اللوائح الصارمة هناك خطر حدوث خروقات للبيانات وإساءة استخدام للمعلومات الحساسة.

**في مفارقة لافتة، يُقرّ الذكاء الاصطناعي بحدوده المعرفية؛ فهو يتقن معالجة البيانات، لكنه لا يعي المعنى، ويُنتج خطابًا متماسكًا دون أن يمتلك ضميرًا يزن نتائجه. وهنا يتبيّن أن قوة الأداة لا تعني اكتمال الفهم، ولا صلاحية الحكم في كل مجال**

**الخلاصة:**

إن هذه التقنية التي لا تحكمها ضوابط أخلاقية، أو معايير إنسانية، أو تعليمات سماوية! شأنها شأن واقع ممارسات العلم التجريبي المنفلت من الضوابط، وقد تجلب معها انحراف البشرية عن إنسانيتها، لا سيما حينما أصبحت هذه التقنية مصدر أزمات عالمية متعددة تتعلق بقضايا رئيسية للحياة البشرية، ومن ذلك تعزيز البطالة، وتغيير القيم والهويات الوطنية، واحتلال الأوطان، والعبث بالثقافات والأديان، واختراق الخصوصيات، وكشف الحسابات.

ومن قلق هذا الذكاء الاصطناعي على صانعيه بصورة خاصة، أنه سوف يسهم في كشف زيف الملل والأديان المنحرفة بما فيها اليهودية والنصرانية، كما أنه سوف يعمل على كشف حقائق السياسات العالمية وأجنداتها! ويشكل التنافس الصيني الأمريكي في تقديم خدمة الذكاء قلقًا وخطورة قد تتحول إلى صراع مفتوح وضحايا عالمية.

وفي مجال العلم والتعليم فإن هذا الذكاء سوف يُشكّل جناية على الأجيال إن أصبحت العملية التعليمية قائمة عليه أو معتمدة على كثير منه؛ ففي كثير من الاستخدامات التعليمية تعطيل للتفكير والإبداع والابتكار والاكتشاف والإنجاز الذاتي، كما أن فيه إضعافًا للثقة بالنفس؛ فالأجيال التي لا تتعب في العلم والبحث والمعرفة لن تُبدع ولن تبتكر أو تخترع، وبالتالي لن يحس هذا الإنسان بوجوده وقيمته وإنسانيته ومواهبه، وهو ما يجعله قاصرًا أسريًا واجتماعيًا وتنمويًا، بل ربما يصنع منه الذكاء الاصطناعي شخصًا انعزاليًا منفردًا مُستهلكًا غير منتج.

ولعل مما يعكس الوعي والمعرفة المتنامية بمخاطر هذا الذكاء ما ورد في أعمال القمة العالمية للذكاء الاصطناعي المنعقد بالرياض في ١٠-١٢ سبتمبر ٢٠٢٤م، تحت شعار (الذكاء الاصطناعي لخير البشرية)، وهو الشعار المهم المُعبِّر عن دور السعودية المأمول بالإسهام في تعزيز أخلاقيات الذكاء الاصطناعي في العالم، وهو يطرح التساؤل حول يقظة العالَم في المعرفة الشاملة عن هذه التقنية التي قَدَّمت خدمات كُبرى للبشرية! لكن عالَم اليوم يكتشف مؤخرًا بأنها تقنية قد لا تحكمها القوانين الأخلاقية والشرائع السماوية، أو ضوابط القِيَم الإنسانية!

ويبقى أن موضوع الذكاء الاصطناعي محل جدلٍ ونقاش رغم ثورته الهائلة المدهشة، إلا أنه يتضاءل أمام قدرة الدماغ البشري (المعجزة)؛ حيث يرى بيل غيتس عملاق التقنية أن المقارنات بين الذكاء الاصطناعي والدماغ البشري نوع من السباق الزمني في محاولات بلوغ الذكاء الاصطناعي مستوى الدماغ البشري -الذي يعمل بوتيرة الحلزون والإشارات الكهربائية السريعة- مما قد يستغرق عقدًا أو قرنًا من الزمان كاملاً للوصول إلى قدرة الدماغ البشري، حسب قوله[١].

وأقول معلقًا على هذا الكلام الذي نطق به بيل غيتس: سبحان الخالق البديع، وما أحوج البشرية إلى استيعاب المفاهيم القرآنية الكثيرة، والقراءة فيها أكثر كما في قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

**التحدي الحقيقي لا يكمن في صناعة ذكاءٍ يتفوق على الإنسان، بل في الحفاظ على إنسان لا يفقد مركزيته وسط هذا التسارع التقني. فالتقنية قد تمنحنا قدرةً أكبر على الفعل، لكنها لا تمنحنا تلقائيًا بوصلةً توجه هذا الفعل. وكلما تسارعت الأدوات، ازداد الاحتياج إلى وعي أعمق يضبطها قبل أن تعيد هي تشكيل ملامح عالمنا**

(١) مدونة بعنوان: (عهد جديد بدأ عصر الذكاء الاصطناعي)، بيل غيتس، بتاريخ مارس ٢٠٢٣م، الرابط التالي: http://www.saudix.org/billgates/.

# التحفيز بالسؤال.. نماذج من القرآن الكريم والسنّة النبويّة

د. طه ياسين (*)

**هل يمكن لسؤالٍ واحد أن يغيّر سلوكًا راسخًا، أو يوقظ قلبًا غافلاً، أو يشعل دافعية للتعلم؟ في هذه المقالة سنرى كيف صنع السؤالُ تحوّلاتٍ عميقة من خلال استعراض نماذج من القرآن والسنة، وأنّ التربية الحديثة تؤكّد أنّه مفتاح التفكير النقدي والتعلم العميق والإبداع. رحلةٌ ملهمة تكشف لنا قوة السؤال حين يُحسَن طرحُه، وتفتح أمامنا آفاقًا جديدة في التربية والبناء.**

لا يكاد درسٌ أو محاضرةٌ أو حديثٌ يمضي دون أن تُطرَح فيه الأسئلةُ وتُستحضَر الإجابات؛ فالسؤال شرارةٌ تذكي جذوةَ الفكر، وتفتح منافذ المعرفة، وتُطلِع العقل على آفاقٍ لم يكن ليبلغها لولا هذا الاستدعاء المحفِّز، وليس عجيبًا أن يقول الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ): «العُلومُ أقفالٌ، والسؤالاتُ مفاتيحُها[١]»؛ فالسؤال مفتاحٌ لكل بابٍ مغلق، ومنطلقٌ لكل رحلةٍ فكرية.

## مفهوم التحفيز بواسطة السؤال:

ثمّةَ تعريفات عدّة لكلمة (التحفيز) تختلف باختلاف ميادين البحث، إلا أنّ معاني هذه الكلمة تنطلق من الجذر(حفّز) بالتشديد، أو من دون تشديد (حفَزَ) للمصدر (حَفْز) وكلاهما يدور حول معاني «الحث والحض والدفع»[٢] ومن هذا الجذر اللغوي تتولد التعاريف الاصطلاحية للتحفيز،

(*) كاتب وأديب سوري.

(١) جامع بيان العلم وفضله (٥٣٧).

(٢) ينظر: لسان العرب، لابن منظور (٣٣٧/٥).

ويمكن جمعها في معنى واحد، هو: «كلُّ قولٍ أو فعل أو إشارة تدفعُ الإنسانَ إلى سلوكٍ أفضل، أو تعمل على استمراره فيه»[١].

أمّا السؤال فتعريفه في الاصطلاح: «استدعاء معرفة، أو ما يؤدي إلى المعرفة»[٢].

وقد غدا التحفيز بالسؤال الرصين الذي يفيد التصوّر فنًّا من فنون العلم والحياة، تُستعمل آلياتُه في التعليم، وفي العلاقات الاجتماعية، وفي ميادين الإدارة والعمل.

## فوائد الأسئلة:

للسؤال فوائد عدَّة، من أهمها:

- تجديد نشاط المتعلمين الذين يملّون من التلقي والاستماع طويلاً.
- يقود السؤال إلى الطريق الصحيحة للتفكير، والربط والاستنتاج[٣].
- يحمل السؤال في ذاته إثارة للمتعلم سواء كان مطروحًا منه أو مطروحًا عليه، فيتحفّز للمشاركة[٤].
- يقوي السؤال علاقة السائل بالمادة المدروسة، كذلك بالمعلم نفسه[٥].
- يعزز السؤال الثقة بالنفس لدى المتعلم، مما يشعره بقيمته لذاته، فيندفع نحو المزيد[٦].

## مواضع يُكره فيها السؤال:

ومع ما للسؤال من أثر عظيم، فإنه ليس محمودًا على إطلاقه، بل قد يُكره في مواضع معيّنة، من ذلك ما ذكره الإمام الشاطبي في كتابه القيّم (الموافقات)، ومن أهم هذه المواضع:

- السؤال عما لا ينفع في الدين، مثل: سؤال رجل: (مَن أبي يا رسول الله؟ قال: أبوك حذافة، فقام آخر فقال: مَن أبي يا رسول الله؟ قال: أبوك سالم مولى شيبة فلما رأى عمر ما في وجهه، قال: يا رسول الله، إنّا نتوب إلى الله عز وجل)[٧].
- السؤال عن شيء بيّنه القرآن الكريم، كما سأل رجل عن الحج: (أكلَّ عامٍ يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: لو قلت: نعم لوجبت، ولما استطعتم، ثم قال: ذروني ما تركتُكم، فإنما هَلَك من كان قبلَكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)[٨].
- السؤال من غير حاجة له، وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].
- السؤال عن صِعاب المسائل وشِرارها، كما جاء في النهي عن الغُلوطات[٩].
- السؤال عما شجَر بين السلف الصالح، وقد سُئل عمر بن عبد العزيز عن قتال صفين، قال «تلكَ دماء كفَّ الله عنها يدي، فلا أحبّ أن ألطخ بها لساني»[١٠].

ويقاس على هذه المواضع كل موضع يرى السائل أنه لا نفع منه، أو أنه يثير غضبًا، أو قصده إفحام الخصم، أو نحوه. وخارج هذا، فإن الأسئلة مفاتيح ما أغلق من أبواب المعرفة، لا بد منها.

**السؤال في القرآن ليس مجرد استفهام، بل أداة تحفيز تغيّر السلوك وتهذّب الوجدان؛ فبسؤالِه تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ تحوّلت عادةٌ راسخة إلى امتثال فوري، وبسؤالِه: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ اندفعت النفوس إلى البذل، وبسؤالِه: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ارتقت القلوب إلى مقام العفو**

(١) الدافعية النظرية والتطبيق، لثائر غباري، ص (٢٢).
(٢) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ص (٤٧٣).
(٣) ينظر: الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية، لإبراهيم عبد العليم، ص (٤٣٩).
(٤) طرق تدريس اللغة العربية، لجودت الركابي، ص (٦٠).
(٥) ينظر: الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية، ص (٤٢٨).
(٦) أفكار تربوية، لإبراهيم عباس، ص (١٥٨).
(٧) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٢) ومسلم (٢٣٦٠).
(٨) أخرجه مسلم (١٣٣٧).
(٩) أخرجه أحمد (٢٣٦٨٧) من حديث معاوية رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغُلوطات». والغلوطات هي: «المسائل التي يُغالَط بها العلماء ليَزلُّوا فيها، فيهيج بذلك شرٌّ وفتنة». لسان العرب (٣٦٤/٧).
(١٠) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (١٧٧٨).

## أثر التحفيز بالسؤال في القرآن الكريم:

نذكر هنا نماذجَ ثلاثة عن الأثر الذي تركه التحفيز بالسؤال في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم:

### ١- القضاء على عادة راسخة:

ويتجلّى أثر السؤال القرآني في قدرته على إحداث تحوّلٍ سلوكيٍّ عميق، كما في تحريم الخمر؛ فعن عمر ﷺ، أنه قال: «اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانَ شفاءٍ»، فنزلت التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، فدُعي عمر فقُرئت عليه، فقال: «اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانَ شفاءٍ»، فنزلت التي في النساء: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، فدُعي عمر فقُرئت عليه، ثم قال: «اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانَ شفاءٍ»، فنزلت التي في المائدة: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، فدُعي عمر فقُرئت عليه، فقال: «انتهينا، انتهينا»[١].

وعن أنس ﷺ قال: كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، وكان خمرهم يومئذ الفضيخ، فأمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادي: «ألا إن الخمر قد حُرِّمت»، قال: فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهْرِقها، فخرجت فهَرَقْتها، فجَرَتْ في سِكك المدينة[٢].

وإذا نظرت إلى السياق، فإن أكثر ما يستوقفك في أثر التحفيز الذي جعل الصحابة رضوان الله عليهم يندفعون لإهراق الخمر وسكب قدورها هو السؤال الربّاني العميق: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. قال الزمخشري: «مِن أبلغ ما ينهى به؛ كأنه قيل: قد تلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون، أم أنتم على ما كنتم عليه؟»[٣].

### ٢- إيثار أمر الله على عَرَض الدنيا:

ومن أبلغ صور التحفيز بالسؤال ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وهو استفهام يوقظ همم المؤمنين، ويستثير روح المبادرة لديهم، جاء عن عبد الله بن مسعود في سبب نزول هذه الآية، قال أبو الدحداح الأنصاري: (يا رسول الله، وإن الله عز وجل يريد منا القرض؟ قال: نعم، يا أبا الدحداح، قال: أرني يدَك يا رسول الله، قال: فتناول يده، قال: قد أقرضتُ ربّي عز وجل حائطي، قال: وحائطٌ له فيه ستمئة نخلة، قال: وأم الدحداح فيه، وعيالها فيه، قال: فجاء أبو الدحداح، فناداها: يا أمَّ الدحداح فقالت: لبيك، قال: اخرجي، فقد أقرضته ربي عز وجل)[٤].

### ٣- التسامي فوق الجراح:

ويأتي السؤال هنا ليخاطب القلب مباشرةً، لا الحكم فقط، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]؟ فعن أم المؤمنين عائشة ﵂ في حديث الإفك: قال أبو بكر ﷺ، وكان ينفق على مِسطح بن أُثاثة لقرابته منه وفَقره: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. قال أبو بكر الصديق: بلى والله إني لأحبُّ أن يغفرَ الله لي، فرجع إلى مِسطح النفقة التي ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا[٥].

**التحفيز بواسطة السؤال من الأساليب النبوية الفاعلة في مختلف المواقف التي مر بها الصحابة، فقد كان عليه الصلاة والسلام يستخدمه للإقناع والتسليم، وإثارة التنافس في الخير، وإيقاظ المشاعر الكامنة في القلوب، وغير ذلك من المواقف**

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٠١)، وأحمد (٣٧٨).
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٦٤).
(٣) الكشاف (١/٦٧٥).
(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٤٥٢).
(٥) أخرجه البخاري (٤١٤١).

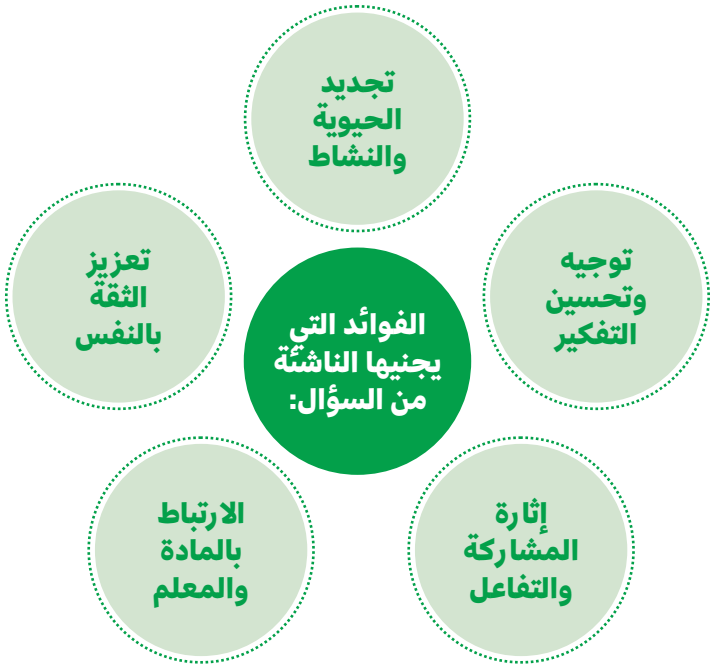


## أثر التحفيز بالسؤال في السنة النبوية:

استعمل النبي ﷺ السؤال وسيلةً فاعلةً في مواقف مرّ بها صحابته رضوان الله عليهم، فكان له تأثير فعليّ على حياتهم، فمن ذلك:

### ١- القناعة والتسليم:

بالسؤال أقنع رسولُ الله ﷺ شابًّا تجرّأ واستأذنه في الزنا، فأقبل القوم يزجرونه، فقال رسول ﷺ: (ادنُه)، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال: (أتحبه لأمك؟)، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: (ولا الناس يحبونه لأمهاتهم)...[١].

### ٢- إثارة التنافس:

وبالسؤال حرّك النبي ﷺ همم أصحابه، فأثار فيهم التنافس إلى فعل الخير على الرغم من عسر الحال؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: (جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: إني مجهود (أي أصابني الفقر والجوع)، فأرسَل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعَثَك بالحق ما عندي إلا ماءٌ، ثم أرسَل إلى أخرى، فقالت مثلَ ذلك، حتى قلن كلُّهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماءٌ، فقال النبي ﷺ: مَن يُضيّف هذا الليلة؟ فقال رجلٌ من الأنصارِ: أنا يا رسول الله، فانطلَق به إلى رَحْلِه، فقال لامرأته: أكرِمي ضيفَ رسول الله ﷺ).

وفي رواية قال لامرأته: (هل عندك شيء؟ فقالت: لا، إلا قوتُ صبياني، قال: علِّليهم بشيءٍ، وإذا أرادوا العَشاء فنوِّميهم، وإذا دخل ضيفُنا فأطفِئي السراج، وأريه أنَّا نأكُل، فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين، فلما أصبح، غدا على النبي ﷺ، فقال: لقد عَجِبَ الله من صنيعكما بضيفكما الليلة)[٢].

ويَظهر في سؤال رسول الله ﷺ: (من يضيف هذا الليلة؟) تحفيزٌ يثير التنافس بين الصحابة، لمبادرة فعل الخير على الرغم من عسر الحال.

### ٣- استدرار دموع المحبة:

ومن أبلغ ما يُظهر أثر السؤال في معالجة النفوس ما وقع مع الأنصار يوم حنين، إذ لم يعالج النبي ﷺ اعتراضهم بتقريع أو توبيخ، بل بسلسلة أسئلة أيقظت فيهم معاني الامتنان والرضا. ومثال ذلك: حين فُتحت حُنين، وقسَّم رسول الله ﷺ الغنائم؛ فأعطى المؤلّفة قلوبُهم، فبلغه أن الأنصار يحبُّون أن يصيبوا ما أصاب الناس، فقام رسول الله ﷺ فخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلَّالاً فهداكم الله بي،

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢١١).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٧٩٨) ومسلم (٢٢٥٤).

وعالةً فأغناكم الله بي، ومتفرقين فجمعكم الله بي. ويقولون: الله ورسوله أَمَنُّ، فقال: ألا تجيبوني؟، فقالوا: «لله ورسوله المنّ والفضل». فقال: أما إنكم لو شئتم أن تقولوا كذا وكذا وكان من الأمر كذا وكذا... فقال: ألا ترضَون أن يذهبَ الناسُ بالشَّاء والإبل وتذهبون برسول الله إلى رِحالكم؟ الأنصار شِعار والناس دِثار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشِعبًا لسلكت وادي الأنصار)[١].

بهذه الأسئلة المؤثّرة (ألم أجدكم) (ألا تجيبوني) (ألا ترضون) خاطب النبي ﷺ الأنصار المعترضين؛ فجاشت عواطفُهم، وذَرَفت أعينُهم، وامتلأت قلوبهم رضًا، وكان من وصفهم: فبكى القوم حتى أَخْضَلوا لِحاهُم وقالوا: رضينا برسول الله قَسْمًا وحَظًّا[٢].

**في ظل تحديات التعليم المعاصرة، تتأكد أهمية السؤال أداةً تحفيزية تُنشّط الدافعية الداخلية وتجعل المتعلم فاعلاً لا متلقيًا. ولم يعد السؤال مجرد استدعاء للمعلومات، بل غدا محورًا في التعليم الحديث، ومحركًا للتعلم النشط، والاستقصاء، وتنمية المهارات والتفكير**

## التحفيز بالسؤال في التربية الحديثة:

في ظل التحديات المعاصرة في ميدان التعليم، تبرز الحاجةُ إلى إعادة الاعتبار للسؤال بوصفه أداة تحفيزية فعالة تُنشّط الدافعية الداخلية للمخاطب، وتجعله مشاركًا فاعلاً لا مستقبِلاً سلبيًا.

يُوكد علماء التربية المعاصرة على أن السؤال لم يَعُد مجرد وسيلة لاستدعاء المعلومات، بل أصبح أداة مركزية في فلسفات التعليم الحديثة، ومحفّزًا رئيسًا لعمليات التعلم النشط، والتعلم القائم على الاستقصاء، وتنمية المهارات.

وإنَّ السؤال يؤدي إلى إيقاظ التفكير لدى التلاميذ، وإثارة الانتباه إلى الحقائق التي يراد الوصول إليها، فهو تمرين القوى العقلية كالربط والاستنباط والتنبؤ[٣].

ويقوم بإثارة نشاط التلاميذ ويجعلهم فاعلين، ويحملهم على الاشتراك العملي في الدرس، فالأسئلة التي يطرحها المعلم تحمل التلاميذ على المشاركة والاستماع والفهم، وتبدد مخاوفهم[٤].

أما علماء التربية في الغرب والشرق فلهم في ذلك دراسات وأبحاث عديدة، خلصوا منها إلى نتائج جميلة ومثمرة، منها ما يأتي:

أبرز آثار السؤال في نظر علماء التربية اليوم:

### ١. تنمية التفكير النقدي (Critical Thinking):

يرى عدد من التربويين، مثل Brookfield و Paul & Elder، أن السؤال يمثل النقطة المركزية في صقل مهارات التفكير النقدي[٥].

### ٢. تفعيل التعلم النشط (Active Learning):

يقوم السؤال بإثارة نشاط التلاميذ ويجعلهم فاعلين، ويحملهم على الاشتراك العملي في الدرس، فالأسئلة التي يطرحها المعلم تحمل التلاميذ على المشاركة والاستماع والفهم والسؤال عما لا يدركونه من الحقائق[٦].

### ٣. تعزيز الدافعية الداخلية (Intrinsic Motivation):

يرى علماء مثل Deci & Ryan في نظرية الدافعية الذاتية أن السؤال يحفّز المتعلم عبر:

إثارة الفضول، إعطائه شعورًا بالقدرة على الاكتشاف، وتمكينه من إنجاز مهمة معرفية بنفسه. فالسؤال يشعل الرغبة العميقة للطلاب في التعلم، لأنها تنبع من متعة الاكتشاف لا من الخوف من الامتحان[٧].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣٠) ومسلم (١٠٦١).
(٢) أخرجه أحمد (١١٧٣٠).
(٣) ينظر: الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية، ص (٤٢٩).
(٤) طرق تدريس اللغة العربية، ص (٥٩).
(٥) كتاب التفكير النقدي: أدوات لتولّي زمام تعلّمك وحياتك، (Critical Thinking: Tools for Taking Charge of Your Learning and Your Life) ٢٠٠٦)، لمؤلفيه: Paul, Richard & Elder, Linda.
(٦) طرق تدريس اللغة العربية، ص (٥٩).
(٧) كتاب الدافعية الداخلية وتقرير المصير في السلوك الإنساني (Intrinsic Motivation and Self-Determination in Human Behavior) ١٩٨٥م، لمؤلفيه: Deci, Edward L., & Ryan, Richard M. وهما من أبرز منظّري نظرية التحديد الذاتي (Self-Determination Theory).

**السؤال يحفّز المتعلم عبر إثارة الفضول، وإعطائه شعورًا بالقدرة على الاكتشاف، وتمكينه من إنجاز مهمة معرفية بنفسه. فالسؤال يشعل الرغبة العميقة للطلاب في التعلم، لأنها تنبع من متعة الاكتشاف لا من الخوف من الامتحان**

### ٤. بناء مهارات حلّ المشكلات (Problem-Solving Skills):

يرى التربويون اليوم أن القدرة على حل المشكلات تبدأ من السؤال الجيد؛ إذ يُعدّ السؤال هو الخطوة الأولى في منهج التفكير التصميمي (Design Thinking) والاستقصاء العلمي[١].

### ٥. ترسيخ التعلم العميق (Deep Learning):

التعلم العميق هو قدرة الطالب على: فهم المعنى، الربط بين المفاهيم، تطبيق المعرفة في سياقات جديدة.

### ٦. صياغة عقلية استقصائية (Inquiry Mindset):

ترى الاتجاهات التربوية الحديثة أن السؤال ينمّي لدى المتعلم عقلية الاستقصاء، وهي عقلية قائمة على: التساؤل المستمر، الرغبة في الفهم، البحث عن الأسباب، وعدم الاكتفاء بالمعلومات الجاهزة[٢].

### ٧. تقييم حقيقي للمعرفة، لا مجرد امتحان:

يرى خبراء التقويم –مثل Black & Wiliam– أن السؤال يمثل جزءًا من التقييم البنائي (Formative Assessment) حيث يكشف الفهم، يوجه المعلم، يقوّم مسار الدرس، ويساعد الطالب على تصحيح مساره[٣].

### ٨. تبديد الخوف واستلهام الإبداع:

طريقة الكايزن «Kaizen» هي إستراتيجيَّة يابانية قديمة للتحسين المستمر، وتُعنى بالتحسين المستمرِّ للعجز التجاري، وخطوط الإنتاج، والعلاقات الشخصية. وأول مرحلة في هذه الطريقة: طرح أسئلة صغيرة لتبديد الخوف واستِلْهام الإبداع[٤].

### خاتمة:

يتبيّن مما سبق أن السؤال في حقيقته ليس مجرد أداةٍ للتعرّف، بل هو طاقة تحفيزيّة محركة، ومفتاحٌ لتحريك العقل والوجدان، ومنطلقٌ لبناء الدافعية الداخلية وتطوير مهارات التفكير. وقد دلّ القرآن الكريم والسنة النبوية على أثر السؤال في تغيير السلوك، ورأينا في سير الصحابة نماذج عملية لهذا الأثر العظيم. كما أثبتت النظريات التربوية الحديثة أن السؤال هو المحرك الأول للتعلم النشط، والتفكير النقدي، والإبداع، وحلّ المشكلات.

وعليه، فإنّه ينبغي ألا يغيب عن ذهن المعلمين والمربّين والدعاة أهمية السؤال المخطط له من حيث صياغته ووقته ووجهته. فقد يتحقق بالسؤال ما لا يتحقق بغيره من الأمر والنهي والتعجب ونحوه.

---

(١) كتاب كيف نحلّ المسألة (How to Solve It) ١٩٤٥م، وهو كتاب شهير في منهجية حلّ المشكلات الرياضية من تأليف: Polya, George.

(٢) الاستقصاء ومعايير التربية العلمية الوطنية (Inquiry and the National Science Education Standards) ٢٠٠٠م، من إصدار المجلس القومي للبحوث في الولايات المتحدة National Research Council.

(٣) كتاب التدريس من أجل تعلّم ذي جودة في الجامعة (Teaching for Quality Learning at University) ١٩٩٩م، لمؤلفه: Biggs, John .

(٤) كتاب كايزن وإدارة العمل، أعمال مؤتمر غيربيزا (شبكة البحث الفرنسية المتخصصة في صناعة السيارات)، Kaizen et gestion de travail، Actes du GERPISA n°13 ;p17، لمؤلفه: Koïchi SHIMIZU.

# رأس مال الأمة: كيف نحافظ عليه؟

د. خالد طه المقطري (*)

**تقوم نهضة الأمة على أصولٍ معنوية ومؤسسية تُشكّل رأس مالها الحقيقي، وحين تُهمل هذه المقومات لا يتراجع حضور الأمة فحسب، بل تتفكك بوصلتها وتضيع جهودها في شتاتٍ لا ينتهي. يكشف هذا المقال كيف يتآكل رأس المال الحقيقي للأمة بصمت، وكيف يمكن استعادته عبر مشروع جامع يوحّد المرجعية، ويرشد الجهود، ويعيد ترتيب أولويات القوة والبناء. إنها دعوة لإدراك ما يُقيم الأمم وما يُسقطها، وما يجمع شتاتها ويعيدها إلى مسار النهضة.**

للأمم سنن إلهية تحمي وجودها وتضمن استمرارها، وهذه السنن تشمل الفكر والعقيدة، والدعوة والجهاد والتربية، وكذلك الإدارة والبناء وغيرها. لا تنهض أمةٌ عظيمة إلا بمشروعٍ جامعٍ تتمسّك به، وثوابت تُقيم عليها وجوداً. وحينَ تنهار أمةٌ ما، فإن السبب –غالبًا– هو إهمالُ هذه المقومات أو التفريطُ في تماسكها ووحدتها.

وعبر تاريخ البشر، نجد أن سنن الله في تعاقب الأمم واضحة، كما قال في كتابه الكريم: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وعندما تحافظ الأمة على كنوزها وأصولها تكون قد حمت رأس مالها، مما يبقيها قوية قادرة على الصمود، حتى لو فقدت جزءًا من مواردها المادية، لكن إذا ضيعت هذه الأصول فإنها تنهار في وقت قصير مهما كثرت ثرواتها.

ومما ينبغي الوعي به أن ما نعيشه اليوم من تراجع في حضارتنا وريادتنا ليس شيئًا حتميًا لا يتغير، بل هو نتاج إهمال تلك الأسس والتفريط بالموارد معنويةً كانت أم بشرية أم مهارية؛ لذلك من الضروري أن نعيد التفكير في مفهوم «رأس مال الأمة» بنظرة أعمق تشمل كل جوانب الحياة، تربط بين الدعوة، والعلم، والتربية والإدارة، والجهاد، والاقتصاد، في خطة واحدة تهدف لإعادة التوازن لأمتنا وتكاملها وتوحيد جهودها نحو البناء والتقدم.

(*) دكتوراه في الإحصاء التربوي، مهتم بالاحتساب تدريبًا وثقافة وممارسة.

فالمسؤولية الشرعية لا تقتصر على المال؛ بل تشمل كلّ ما وُهِبنا من نِعم معنوية ومادية، يُسأل عنها الفرد، وتُحاسب عليها الأمة. وإن مما يدعو للقلق ما نراه في أمتنا من فقد لأهم أصولها ورأس مالها دون أن تنتبه لذلك؛ فكم من عالم فقدناه دون أن يُعوَّض مكانُه، وما أكثر المشروعات الدعوية التي انطفأت، وبقيت الثغور التي كانت تسدها متروكة دون رباط. وتشتت كثير من جهودنا الدعوية والاحتسابية والإدارية والعلمية دون أن يقوم في مكانها ما يعوض عنها، وفي الوقت نفسه نرى أعداء أمتنا شرقًا وغربًا يستهدفون جوهر كياننا: عقيدتنا وهويتنا وقيمنا ورموزنا الذين يحملون رايتها دون أن ننتبه من غفلتنا.

وفي هذا المقال سوف أتناول بتوفيق الله أبرز رؤوس الأموال التي ينبغي للأمة أن تحافظ عليها، موضحًا أسباب التفريط بها، وطرق الحفاظ عليها وأهمية ربطها بمشروع جامع يُوحّد الجهود، ويوجه الطاقات، ويصون ما تبقى لنا من أسباب القوة والبقاء.

## رأس المال الدعوي؛ الخطاب الذي يوحّد لا يفرّق:

الدعوة ليست مجرد كلام يُقال فحسب، بل هي مشروع متكامل يهدف إلى تعبيد الحياة لله وحده. والدعوة اليوم هي أغلى ما تملكه أمتنا؛ بها يُحفظ الدين، ويقل المنكر، وبدونها تنتشر الأفكار الخاطئة، ويعلو صوت الباطل، وتتغير الفطرة السليمة، ولذلك فالدعاة هم كنز الأمة الحقيقي، لا ينبغي أن يتركوا مواقعهم، ولا يبيعوا دعوتهم بأي ثمن ولأي ظرف.

وعلى الأمة أن تحرص على دعم دعاة الخير، وتساندهم بما تستطيع، وتمهد لهم الطريق؛ فهم ورثة النبي محمد ﷺ والأنبياء من قبله.

إن الدعوة إلى الله هي جوهر الرسالة، لكنها لا تعطي ثمارًا إذا لم تكن مرتبطة بخطة واضحة ومشروع جامع؛ فالجهود المشتتة بين المشروعات المختلفة تتضارب وتضيع.

ولا يمكن للدعوة أن تستعيد قوتها إلا إذا التزمت بوصلتها في المشروع الجامع للأمة، المتجرد عن الهوى، المعتمد على العلم، المحكوم بالمصلحة الشرعية.

**إن الدعوة إلى الله هي جوهر الرسالة، لكنها لا تعطي ثمارًا إذا لم تكن مرتبطة بخطة واضحة ومشروع جامع؛ فالجهود المشتتة بين المشروعات المختلفة تتضارب وتضيع**

### ومن أسباب فقدانه:

تبعية بعض الدعاة للممولين أو للأهواء السياسية أو التحزبات الضيقة، وهذه الأمور تصرف الداعية عن مقصد الدعوة الأساسي، ومنها غياب التنسيق المؤسسي بين المدارس الدعوية، وهذا سببه في الغالب ضعف التنسيق وأحيانًا ضعف الثقة، ومنها ضعف وحدة الخطاب، وهو نتيجة طبيعية لضعف أو انعدام التنسيق.

### كيف نحافظ عليه؟

لا بد من تحرير الدعوة من القيود الحزبية والمصالح الضيقة، وكذلك تحرير الدعاة من التبعية السلبية للجماعة أو الحزب أو الداعم، والانتقال بهم من التبعية إلى التشاور والتنسيق، كما أن تكوين هيئات علمية دعوية جامعة تضع الخطط المشتركة وتوحّد الخطاب من شأنه أن يرفع من مستوى التنسيق، ومن المهم الانتقال من العمل الفردي إلى الجماعي المنظم الذي يخدم الأمة.

إنّ وحدة المرجعية العلمية هي حجر الأساس لوحدة الفكر والرؤية، ومن دونها تضيع البوصلة وتكثر النزاعات.

## رأس المال العلمي؛ المرجعية الموحِّدة للأمة:

العلم الشرعي والتربوي والمعرفي هو الجذر الذي منه تُسقى القيم وتُربى الأجيال، وفي زمن «الهشاشة الفكرية» كزماننا هذا نحتاج إلى عقول راسخة، ومدارس رصينة، ومعلمين ربانيين، وقدوات محتسبين لا مجرد ناقلين.

والحفاظ على رأس المال العلمي يعني: أن نُكرّم العلماء لا أن نهمّشهم، وأن نعيد للتعليم هيبته وصدقه، أن نربط العلم بالواقع والتزكية والاحتياج والمهارات.

وإن أخطر ما يُفرّق الأمة اليوم ليس الجهل، بل اختلاف المرجعيات، وتمزق المؤسسات العلمية، وتعدد المناهج بلا وحدة هدف.

**إن أخطر ما يُفرّق الأمة اليوم ليس الجهل، بل اختلاف المرجعيات، وتمزق المؤسسات العلمية، وتعدد المناهج بلا وحدة هدف**

### أسباب فقدانه:

أهم أسباب فقدان رأس المال العلمي: انفصال العلم عن التزكية والواقع والاحتياج؛ فيصبح جامدًا بعيدًا عن التطبيق الواقعي، ومنها ضعف وجود المرجعية العلمية الموحّدة وتعدد مصادر الفتوى، وتحويل التعليم إلى مهنة شكلية لا مشروعٍ تربويٍ حضاريٍ.

### كيف نحافظ عليه؟

نحافظ على رأس المال العلمي بإحياء مفهوم العالم الرباني الذي يجمع بين العلم والقدوة، وبتوحيد المرجعية العلمية للأمة عبر مجالس علمية مستقلة، ومن خلال ربط العلم بالتربية والإصلاح المجتمعي، لا بالمظاهر الأكاديمية فقط، ولا بد من توحيد الأصول العلمية التي تعصم من الانحراف، ومحاصرة نقاط الخلاف وتحييدها ما أمكن، ومن الأمور المهمة: بناء شبكة علماء ومرجعيات تُقدّم العلم في خدمة المشروع الجامع، وإخراج العلم من حواضر الصراع المذهبي والوسائلي والسياسي إلى فضاء الأمة العام.

إنّ وحدة المرجعية العلمية هي حجر الأساس لوحدة الفكر والرؤية، ومن ثم وحدة الصف، وبدونها تضيع البوصلة وتكثر النزاعات، إن مشروع الأمة لن ينجو ما لم يكن له عقل شرعي جامع، يضبط الخلاف ويوجه الفقه نحو التنوع لا النزاع.

## رأس المال الاحتسابي؛ روح الأمة ومقياس حيويتها:

فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (الحسبة) هي مرآة الأمة الأخلاقية، وبرهان حيويتها، ليست ترفًا اجتماعيًا، بل هي مقياس حرارة الإيمان في المجتمع، لكنها تنقلب عبئًا إن لم تُربط بالضوابط الشرعية وبمشروع يحكم تصرفاتها، ويرشد أولوياتها، ويُراعي أحوالها. وإذا رأت الأمة منكرًا ولم تُنكره فهي في حالة احتضار، أما إذا أنكرته بغير علم أو عدل، فإنها تحفر قبرها بيدها.

ورأس المال الاحتسابي يحتاج إلى رجال ربانيين وقدواتٍ في الميدان، ومؤسساتٍ تتبنى هذا الواجب العظيم، ولا بد من انتشار ثقافة عامة ترى في الحسبة علاجًا ووقايةً وحبًا ورحمة، وبعض العاملين في الحسبة -بحسن نية- قد يضرون المشروع العام حين ينكرون بدون فقه الواقع، أو يجعلون الإنكار أداة للصراع والصدام بدل الإصلاح.

إن رأس المال الاحتسابي يُثمر حين يكون صمام أمان داخل مشروع الأمة الكبير، لا مشروعًا موازيًا يتقاطع معه أو يُربكه.

### أسباب فقدانه:

رأس المال الاحتسابي يُفقد عند غياب الفقه في الأولويات والمآلات، وعند تحوّل الحسبة إلى أداةٍ حزبيةٍ أو وسيلة صراع، وكذلك مع ضعف المؤسسات التي ترعى هذا الفرض وتؤطّره بالعلم والعدل.

### كيف نحافظ عليه؟

من أهم وسائل المحافظة عليه: ترسيخ فقه الحسبة بوصفها رحمة لا قسوة، وإصلاحًا لا تشهيرًا، وإقامة مؤسسات احتسابية متخصصة تعمل ضمن مشروع الأمة، وتدريب المحتسبين على فقه الواقع والمصلحة الشرعية.

الحسبة المتوازنة تُعيد للأمة روحها الأخلاقية، وتربط بين الإصلاح الدعوي والمجتمعي في تكاملٍ راشد.

## رأس المال الجهادي؛ في خدمة قضايا الأمة لا أجندات الفُرقة:

الجهاد بمعناه الشامل (بالدعوة والعلم والبيان واللسان، والقلم، والسلاح، والاقتصاد، والموقف) هو صوت الأمة الذي لا يُشترى، ولا يُباع. ولم تكن الأمة يومًا أمة استسلام، بل أمة تضحية ومقاومة حتى وهي في أضعف حالاتها.

وما ضاعت القضية الفلسطينية، ولا ذَلّ المسلمون في الهند وكشمير وأراكان وغيرها إلا حين تركت الأمة الجهاد، وقعدت عن النفير، ورضيت بالذل والهوان.

والحفاظ على رأس المال الجهادي يعني: ربطه برؤية الأمة الحضارية التكاملية الواسعة،

لا بمزاج التنظيمات ورؤاها الضيقة، ولا بد من تعظيم التنسيق بين ميادينه، وأن تضبط بوصلته بالرجوع لأهل العلم العاملين، وأن يُقدَّم مشروع المقاومة لا مشروع التمرد الفوضوي.

الجهاد حين لا يُضبط ببوصلة الشرع الذي يدعو لإقامة المشروع الجامع المنطلق من ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ ومن ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ يُصبح فتنة أو أداة في يد خصوم الأمة.

**الحفاظ على رأس المال الجهادي يعني: ربطه برؤية الأمة الحضارية التكاملية الواسعة، لا بمزاج التنظيمات ورؤاها الضيقة، ولا بد من تعظيم التنسيق بين ميادينه، وأن تضبط بوصلته بالرجوع لأهل العلم العاملين، وأن يُقدَّم مشروع المقاومة لا مشروع التمرد الفوضوي**

### أسباب فقدانه:

أبرز أسباب فقدانه: الانفصال عن العلماء، والتنافس بين الرايات الميدانية، وحصر وتغليب مفهوم الجهاد في القوة العسكرية دون بقية أبعاده الحضارية، وحصول الاختراقات عبر بوابات الدعم وغيرها.

### كيف نحافظ عليه؟

عبر ترسيخ مفهوم الجهاد الشامل: جهاد الكلمة والبيان، والاقتصاد، والإصلاح الاجتماعي، إلى جانب السلاح المشروع، وربط العمل الجهادي بالعلم والبصيرة والمقاصد الشرعية، وحماية الصف من الاختراق والارتهان، وتوحيد الجهود المقاومة تحت مشروع يخدم قضايا الأمة الكبرى.

فالجهاد إذا لم يُضبط بوحدة الرؤية والقيادة يتحوّل إلى فوضى تستهلك الأمة وتستنزفها بدل أن تحميها.

## رأس المال الإداري؛ تأطير المشروع وضبط مساره:

لا مشروع ناجح بلا إدارة سليمة، ولا إدارة مثمرة إلا إذا كانت في خدمة الرؤية العليا للأمة، وما من فكرة نجحت إلا عبر إدارة واعية ومؤسسة متماسكة.

رأس المال الإداري هو عقل الأمة في التنظيم، وضمان استمراريتها، ومنع التبدد، والهدر والتكرار، والفوضى.

### ومن مظاهر ضياع رأس المال الإداري:

تضارب السياسات بين مؤسسات الأمة، والشخصنة والولاءات الضيقة، وضعف الشفافية والحوكمة والتوثيق، وضعف الاستفادة من البيانات والتقويم والمتابعة، ومن الخبرات السابقة.

### أسباب فقدانه:

غياب النظام والشفافية والمؤسسية، وغلبة الولاءات الشخصية والحزبية على الكفاءة، وضعف ثقافة التوثيق والتقويم والمتابعة.

### كيف نحافظ عليه؟

من خلال بناء هياكل إدارية وأنظمة محكمة تُدار بالكفاءة لا بالمجاملة، وترسيخ ثقافة التخطيط والمتابعة والمحاسبة، والانتقال من المبادرات الفردية إلى المؤسسات الجماعية المتكاملة، وتوطين الخبرات بدلاً من استيرادها جاهزة، وتحويل العمل الخيري والدعوي والعلمي والتربوي من ردود أفعال وأعمال فردية إلى تخطيط مؤسسي طويل الأمد.

إن الإدارة اليوم هي الأداة التي تربط بين رؤوس الأموال السابقة وتحشدها نحو غاية واحدة، وما لم نربطها بمشروع جامع؛ ستظل إداراتنا تعمل بجدّ ولكن في اتجاهٍ لا يخدم الهدف الصحيح، فالإدارة ليست وظيفةً تنظيمية فحسب، بل هي حلقة الوصل بين جميع رؤوس الأموال، وبها يتحقق التكامل ووحدة الاتجاه.

## رأس المال الاجتماعي والاقتصادي؛ قاعدة النهوض العملي:

المجتمع هو الوعاء الذي يحتضن قيم الأمة وأفرادها، والاقتصاد هو جناحها المادي الذي يمنحها الاستقلال.

### أسباب فقدانه:

هناك أسباب متعددة، أهمها: غياب المؤسسات الوقفية والإنتاجية الداعمة لمشروعات الأمة، والاستسلام للمنظمات التي تخصصت في الفتك بهما، وعدم معالجة مشكلات الفقر والبطالة

والاكتفاء بالاعتماد على الخارج، وتفكك الروابط الاجتماعية وضعف روح الجماعة.

## كيف يُسترد؟

يسترد رأس المال الاجتماعي والاقتصادي من خلال ترسيخ التكافل الاجتماعي والوعي بالمسؤولية المجتمعية، ودعم الاقتصاد الأهلي والإنتاجي المستقل، وتفعيل الأوقاف والتنمية المستدامة لخدمة المشاريع الدعوية والعلمية والتربوية.

فلا نهوض لأمةٍ بلا مجتمعٍ متماسك واقتصادٍ حرٍّ يُغذّي مشروعها الجامع.

## المشروع الجامع للأمة - الرؤية التي توحّد وتنهض:

المشروع الجامع للأمة هو الإطار الكلي الذي تتوحد فيه رؤوس أموال الأمة كلها وجهود مؤسساتها وأفرادها لتحقيق نهضتها الشاملة، قائم على العقيدة والمنهج الصحيح، ويهدف إلى حفظ الهوية وبناء القوة في مجالاتها العلمية والفكرية والدعوية والسياسية والاجتماعية والعسكرية والاقتصادية، بحيث يصبح مشروعًا جامعًا مستقلاً، لا حزبيًا ولا قطريًا ولا إقليميًا ولا تابعًا، بل مشروع أمةٍ ينهض بها ويصون وجودها.

والحقيقة أن هذا المشروع موجود في واقع الأمة، نراه في حركات التحرر، والمشروعات العلمية، والجماعات الدعوية، والمؤسسات الخيرية، ومنابر الدعوة للإسلام، وجهود التوعية والتربية وتصحيح الأفكار، لكنه بحاجة إلى التنسيق والتشاور والتكامل، من أجل مراكمة الجهود، وملء الفجوات، وتقريب الرؤى والأهداف، وإحداث التكامل الضروري فيما بينها.

## كيفية المحافظة عليه؟

ترسيخ المنهج السُّنِّي الجامع الذي يحدد الثوابت والمتغيرات بوضوح، والسعي لإيجاد القيادة العلمية والدعوية الجامعة للأمة، وتحقيق التنسيق بين الجماعات والمؤسسات الإسلامية في العمل الدعوي، والفكري، والسياسي، والإغاثي، والتربية المتكاملة لبناء المسلم الواعي علميًا وروحيًا وجسديًا وفكريًا وعسكريًا، وبناء مشروع واقعي متدرج ينطلق من الوعي إلى الفعل، ويستفيد من تجارب الأمة السابقة، وتعزيز روح الأخوّة الإيمانية، وتقديم الولاء للعقيدة فوق الولاءات الحزبية والقبلية، وتأصيل العمل بالشورى والتخصص والتعاون على البر والتقوى، والاستعداد بمناهج إعداد شاملة تغطي الجوانب العلمية، والإعلامية، والسياسية، والاقتصادية، والجهادية.

المشروع الجامع هو وعيٌ ورسالةٌ وبناءٌ متكامل يمثل رأس المال الحقيقي للأمة، وفقدانه يعني تشتت الجهود وضياع المقاصد، أما المحافظة عليه فتكون بالوحدة، والعلم، والمنهج، والقيادة الراشدة.

> **المشروع الجامع هو وعيٌ ورسالةٌ وبناءٌ متكامل يمثل رأس المال الحقيقي للأمة، وفقدانه يعني تشتت الجهود وضياع المقاصد، أما المحافظة عليه فتكون بالوحدة، والعلم، والمنهج، والقيادة الراشدة**

## نتائج غياب رأس المال الحقيقي:

وحين تغيب هذه الأصول، أو تُهدر، تظهر أعراض الضعف والانقسام بصور منها:

- كثرة المشاريع دون نتائج ملموسة ومشاهدة.
- غلبة العاطفة والارتجال على التخطيط والعقلانية.
- الاستسلام والركون للواقع بدل العمل على تغييره.
- فوضى وحيرة فكرية وتربوية تفقد شباب الأمة اتزانهم.
- ضياع الطاقات والقدرات بين التكرار والانقسام.

## الخاتمة:

لقد آن للأمة أن تعيد اكتشاف رأس مالها الحقيقي: علمها، ودعوتها، وجهادها، وإدارتها، واقتصادها، ومجتمعها، فتجمعها كلها في رؤية موحدة ومؤسسات متكاملة تعمل بتخطيطٍ واستمرار.

فليس المطلوب أن نحفظ الأصول في الذاكرة، بل أن نحيا بها في مشروع جامع ينهض بالأمة من جديد. ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

# التحولات المجتمعية وأثرها في أزمات الشباب

أ. هند معوض (*)

**تركت التحولات الاجتماعية المتسارعة آثارًا عميقة على بنية الشخصية لدى الشباب، فأضعفت منظومة القيم التقليدية، ووسّعت الفجوة بينهم وبين مصادر التأثير التربوي الأصيلة. كما تكشف الدراسات الحديثة عن تصاعدٍ في معدلات الاضطرابات النفسية بين المراهقين نتيجة عوامل متعددة. هذا المقال يحاول تحليل هذه التحولات في إطار علمي متكامل، وصولاً إلى فهم أعمق للأزمات التي يعيشها جيل الشباب اليوم، واقتراح مسارات ترميم واستعادة للتوازن النفسي والاجتماعي.**

تعاني المجتمعات العربية في العصر الحديث من تحولات اجتماعية ونفسية متسارعة أثرت على أفراد المجتمع بشكل عام وعلى الشباب منهم بشكل خاص، والتي ساهم المجتمع في انتشارها دون تعمد مقصود، ولكن يعود ذلك لعدة عوامل متنوعة ومتداخلة (اجتماعية، اقتصادية، ثقافية وسياسية) ساعدت على بروز بعض الظواهر السلبية والتي تتضمن انحلالاً أخلاقيًا وقيميًا أفقد الشباب ثقته بنفسه وبمن حوله، وجعله يعيش حالة من القلق والاضطراب النفسي وفقدان التوازن الاجتماعي، بل وربما رسخ بعض المفاهيم غير الأخلاقية لديهم والتي تعتمد على الغش والنفاق والكذب، وغياب الأمانة، والكثير من السلوكيات غير المحمودة.

والشباب هم ثمار مجتمعاتهم بخيرها وشرها، ولا يمكن فصلهم بحال من الأحوال عما يعتري المجتمع من تغيرات أو انحلال عقائدي، قيمي أو حتى أخلاقي. يقول أستاذ علم النفس في جامعة الكويت عويد المشعان: «سن المراهقة من أصعب

(*) كاتبة وأديبة مهتمة بالقضايا الاجتماعية والأخلاقية - مصر

المراحل العمرية؛ فعند بلوغها ينتقل المراهق من مصدر التأثير الاجتماعي من تقليد الأب إلى تقليد الأقران الأكبر سنًا، غير مدرك سلبية أو إيجابية ذلك»[١].

لذا فإننا عندما ندرس ظاهرة انتشار الأمراض النفسية والاجتماعية بين الشباب العربي لا بد وأن ننظر بعين الواقع للمجتمع لندرس ما طرأ عليه من تغيرات انعكست آثارها سلبًا على الشباب فسلبته بعضًا من أمنه وسلامه النفسي، وساهمت في تفشي بعض الظواهر النفسية كالعزلة والاكتئاب وضعف الهوية والانتماء، فيما يشير تقرير لمنظمة الصحة العالمية على الصعيد العالمي إلى أن شخصًا واحدًا من كل سبعة أشخاص تتراوح أعمارهم بين ١٠ أعوام و١٩ عامًا يعاني من اضطراب نفسي، وهو ما يمثل نسبة ١٥٪ من العبء العالمي للمرض في هذه الفئة العمرية[٢].

## فقدان البوصلة وغياب الهوية:

إن الحفاظ على ثوابت المجتمع وهويته لهو الضمان للحفاظ على أفراد المجتمع من تفشي الانحلال القيمي والأخلاقي بينهم، وعندما نستعرض التغيرات الاجتماعية والنفسية التي طرأت على المجتمعات العربية نلحظ تغيرًا ملحوظًا ظهر في تلك المجتمعات بكل فئاتها وفي القلب منهم الشباب، ويعود ذلك إلى فقدان التوجه والهوية لديهم، والذي ترتب عليه غياب الكثير من ثوابت وضوابط المجتمع ما جعلهم يشعرون بفقدان الاتزان والتخبط والارتباك، الأمر لم يأت من فراغ بل هو نتيجة لتغير مصادر التأثير على الشباب وتوجيههم في الاتجاه الصحيح؛ حيث دخل العالم الافتراضي لينافس العالم الواقعي في تأثيره على سلوك الشباب وقيمه وأخلاقه، ما جعلهم يشعرون بالتخبط والضبابية وذلك عزز لديهم الشعور بالاغتراب ومن ثمّ ظهور بعض الأمراض النفسية والاجتماعية بينهم.

كتب الأستاذ عبد الله عيسى السلامة: «إن ضياع البوصلة يُضيع المهتدين بها من الفرد إلى الأمّة، حيث إن البوصلة المعنوية الفكرية هي التي تحدّد الأهداف المعنوية الفكرية! وهذه ليست آلة مادية، بل هي عقول الحكماء، وذوي الخبرة من البشر!

والهدف قد يكون فرديًا، يخصّ فردًا أو أسرة! وقد يكون الهدف جماعيًا، يشمل قبيلة أو حزبًا أو مؤسّسة أو دولة!

وضياع البوصلة أخطر بكثير من ضياع الهدف؛ فضياع الهدف يظلّ مؤقّتًا، محصورًا في إطار محدّد، ويمكن إيجاده بوجود البوصلة، أمّا ضياع البوصلة فيشكّل كارثة حقيقية على المستويين المادّي والمعنوي! وكلّما اتّسعت دائرة المتأثرين بالهدف اتّسع الخطر بضياعه، فضياع الهدف الفردي يضيع فردًا أو أسرة، وضياع الهدف الجماعي، يضيع حزبًا، قبيلة، مؤسّسة، أو دولة»[٣].

من هنا ندرك أن ضياع الهدف والرؤية، وتخبط الطريق واضطراب الموازين وكذا انحراف البوصلة كان لهما كبير الأثر على أخلاق الشباب ومفاهيمهم.

## البطالة والأزمات الاقتصادية:

ساهمت المشكلات الاجتماعية وعلى رأسها البطالة، الغلاء، التنحية المتعمدة للشباب وغيابهم عن التصدر والقيادة في فقدانهم للثقة بالنفس والبحث عن سبل أخرى لتحقيق الذات قد يغيب عنها الجانب الأخلاقي أو القيمي، وهذا ما يخلق لديهم الشعور بالنقمة على المجتمع قد تصل للكراهية لأنهم من أوصلوه لذلك المستوى المتدني.

«كشفت دراسة علمية حديثة أن الشباب الذين قضوا وقتًا كبيرًا في التعليم ولم يجدوا وظيفة مجدية، هم الأكثر عرضة للإصابة بالأمراض النفسية الناتجة عن البطالة.

ووفقًا للدراسة الجديدة التي قام بها باحثون من معهد الطب النفسي وعلم النفس وعلم الأعصاب (IoPPN) التابع لجامعة كينجز كوليدج لندن، ومن جامعة ديوك في ولاية نورث كارولاينا، ومن جامعة ولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة، فإن الجيل الحالي من الشباب يواجه فرصًا أقل للعمل وأكثر سوءًا مقارنة بالسنين السابقة، لذلك يشعرون بالاكتئاب والعديد من مشاكل الصحة.

(١) ندوة بعنوان «كيف نتعامل مع المراهق» أقامها مركز خدمة المجتمع المستمر في الكويت ٢٠٠٦م.

(٢) صحة المراهقين النفسية، موقع منظمة الصحة العالمية: https://www.who.int/ar/news-room/fact-sheets/detail/adolescent-mental-health.

(٣) مقال: ضياع البوصلة يضيع المهتدين بها من الفرد إلى الأمة، عبد الله السلامة، موقع رابطة العلماء السوريين: https://share.google/5nDi1IEk6nk8fooyB.

ووجد الباحثون أن الشباب الذين يعانون من عدم الحصول على فرص عمل مناسبة كانوا أكثر عرضة لتعاطي المخدرات مثل الحشيش والبانجو والهيروين.

وتوصل الباحثون خلال الدراسة التي شملت ١٠٠٠ شخص من الشباب الخريجين من الجامعات، والتي نشرت في مجلة علم النفس والطب النفسي للأطفال، إلى أن الشباب الذين لا يجدون فرص عمل مناسبة وكانوا يعانون من البطالة كانوا أكثر عرضة للإصابة بأمراض الصحة النفسية وخاصة الاكتئاب.

وأضافت البروفيسور تيري موفيت من كلية كينجز كوليدج في لندن أن النضال وبذل مجهود مضاعف من أجل العثور على عمل يؤثر على الصحة النفسية للشباب، ويؤدي إلى حدوث مشاكل بما في ذلك الاكتئاب، والقلق، وتعاطي المخدرات وزيادة العنف»[١].

## التفكك الأسري:

لا شك أن التفكك الأسري وغياب دعم الوالدين لأبنائهم ساهم بشكل كبير في خلق أزمات نفسية لديهم، أبرزها: الاكتئاب والقلق والاضطراب النفسي، كما أن تحلل الأسرة من دورها الواقي للأبناء خلق منهم شخصيات ضعيفة تفتقد الشعور بالأمان، فكيف تمنحه لغيرها؟!

أشارت دراسة بعنوان: (عوامل الخطر والحماية المرتبطة بالأسرة وتأثيراتها على انحراف الأحداث: ما الذي نعرفه؟) إلى أن:

- الأولاد الذين ينتمون إلى أسر مفككة هم أكثر عرضة للانخراط في السلوكيات المنحرفة من الأولاد الذين لا يزال والديهم معًا، ولكنهم ليسوا أكثر عرضة للخطر من الأولاد الذين لا يزال والديهم معًا ولكنهم يأتون من بيئات عائلية متضاربة.
- بعد التحكم في الجنس والدخل والإشراف الأبوي، استنتج الباحثون أن زيادة التحولات الأسرية ترتبط بشكل كبير بارتفاع معدل السلوك المنحرف وتعاطي المخدرات.
- وبحسب نتائج دراسة روتشستر، أظهر ٩٠٪ من الشباب الذين شهدوا خمسة تحولات عائلية أو أكثر علامات السلوك الانحرافي، مقارنة بـ ٦٤,١٪ من الشباب الذين لم يشهدوا مطلقًا تحولات عائلية[٢].

لذا فإن تفكك الأسرة يلقي بظلاله السلبية على تربية الأبناء وسلوكهم، حيث يقول الدكتور جمال نصار: «إن العاصم من الفساد الأخلاقي بالدرجة الأولى هو الأسرة ودورها في ضرورة التوجيه السليم والتربية الصحيحة، وتأتي الصحبة الصالحة ثم المدرسة، وبصلاح الأُسر تصلح المجتمعات.

فدور الأسرة لا يقتصر على التوجيه والتنبيه والإشارة إلى ما هو صحيح أو خطأ، بل يجب أن تكون التربية مبنية على الحوار الهادئ الهادف بين الأبناء والآباء، ومن التربية أن تتم مراقبة ما يعرضه الإعلام في جميع وسائله، مع تجسير العلاقات مع المدرسة، وتفقّد الصحبة المرافقة له أو لها على الدوام»[٣].

إن الأسرة هي المصدر الأهم الذي يستقي منه الشباب قيمهم وأخلاقهم، وهي السياج الواقي لهم من الانحراف، وعندما يغيب دور الأسرة التربوي والتوجيهي فهذا بالقطع يؤثر بشكل سلبي على أخلاق الشباب وتوجهاتهم.

> **«دور الأسرة لا يقتصر على التوجيه والتنبيه والإشارة إلى ما هو صحيح أو خطأ، بل يجب أن تكون التربية مبنية على الحوار الهادئ الهادف بين الأبناء والآباء، ومن التربية أن تتم مراقبة ما يعرضه الإعلام في جميع وسائله، مع تجسير العلاقات مع المدرسة، وتفقّد الصحبة المرافقة له أو لها على الدوام»**
>
> د. جمال نصار

## مواقع التواصل الاجتماعي:

لا ننكر أن انفتاح الشباب على مواقع التواصل الاجتماعي دون حسيب أو رقيب ساهم في تحللهم من الكثير من القيود الدينية والأخلاقية، وكذا عزلهم

(١) البطالة تؤثر سلبًا على الصحة النفسية للشباب، جريدة اليوم السابع: https://www.youm7.com/2360838.

(٢) عوامل الخطر والحماية المرتبطة بالأسرة وتأثيراتها على انحراف الأحداث: ما الذي نعرفه؟ موقع الحكومة الكندية: https://www.youm7.com/2360838.

(٣) مقال: التحديات التي تعوق تطبيق الأخلاق في حياتنا، د. جمال نصار، موقع الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين: https://iums.me/26173.

عن مجتمعاتهم وصعوبة تواصلهم مع الآخرين، وتقوقعهم داخل عالمهم الافتراضي وغيابهم عن واقعهم؛ ما خلق فجوة بينهم وبين الواقع جعلتهم يشعرون بالغربة والتوتر الدائم، بل والاكتئاب.

وقد أوردت إحدى الدراسات ما يلي:

- يختلف استخدام المراهقين لبعض منصات التواصل الاجتماعي باختلاف الجنس؛ فالفتيات المراهقات أكثر استخدامًا لتيك توك (٧٣٪ مقابل ٦٠٪)، وإنستغرام (٦٩٪ مقابل ٥٥٪)، وسناب شات (٦٤٪ مقابل ٥٤٪). أما الفتيان، فهم أكثر استخدامًا ليوتيوب (٩٧٪ مقابل ٩٢٪)، وتويتش (٢٦٪ مقابل ١٣٪)، وريديت (٢٠٪ مقابل ٨٪).
- ويقول حوالي ثلث المراهقين (٣٦٪) إنهم يقضون وقتًا طويلاً جدًا عليها، بينما يقول ٥٥٪ إنهم يقضون وقتًا مناسبًا تقريبًا عليها، بينما يقول ٨٪ فقط إنهم يقضون وقتًا قصيرًا جدًا عليها. والفتيات أكثر ميلاً من الفتيان للقول إنهن يقضين وقتًا طويلاً جدًا على وسائل التواصل الاجتماعي (٤١٪ مقابل ٣١٪).
- يرى حوالي ٣٢٪ منهم أن تأثيرها كان سلبيًا في الغالب على من هم في مثل سنهم، بينما يقول ٩٪ منهم الشيء نفسه عن تأثيرها عليهم[١].

«فيما أظهرت الدراسات وجود علاقة كبيرة بين الاستخدام الزائد والمستمر لمواقع التواصل الاجتماعي والاكتئاب، حيث يجعل الجهاز العصبي في حالة تأهب للقتال الدائم والجدال أو الهروب، الأمر الذي يزيد من اضطرابات الحركة ونقص التركيز والاكتئاب والمعارضة الدائمة، بالإضافة لمحاولة تقليد ما يرونه على السوشيال ميديا سواء كانت أفكارًا تناسبهم أم لا، أو ما يمكننا تسميته بالتقليد الأعمى من أغاني وملبس وحتى المأكل والمشرب، والرغبة في السفر، والحصول على كل شيء، والذي قد لا يكون حقيقيًا وربما زائفًا، وقد يتعدى الأمر لأن يتم النقاش بالمعتقدات الدينية والأفكار»[٢].

إن الانفتاح اللامحدود للشباب على وسائل التواصل الاجتماعي ساهم في انتشار ظواهر العنف والبلطجة في المجتمع، كما روج لأفكار شاذة وغريبة عن مجتمعاتنا، كذا فقد خلق اضطرابًا في منظومة القيم والأخلاق المجتمعية لدى الشباب.

**لقد نافس العالمُ الافتراضيُّ الواقعَ في التأثير على قيم الشباب وسلوكهم، مما عزّز لديهم الشعور بالضبابية والاغتراب، وأدّى لظهور اضطرابات نفسية واجتماعية. ومواجهة ذلك تبدأ بالوعي الرقمي، وتقوية الروابط الأسرية، وتوجيه الشباب لاستخدام رشيدٍ للتقنية يعيد ربطهم بالمعرفة والعمل والواقع**

## طوق النجاة:

الشباب هم عماد الأمم وأساس نهضتها، والمؤكد أن ما يصيب الشباب من ضرر تعود تبعاته على المجتمع بأسره. عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: «ما بعث الله نبيًا إلا شابًّا، ولا أوتي العلم عالم إلا شابًّا»، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠][٣]؛ لذا فمن الضروري أن نرى الصورة بشكل أكثر واقعية لنضع الحلول المناسبة لتلك المشاكل، وأهمها:

### تعزيز القيم الدينية والأخلاقية:

يبقى الدين هو السياج الأقوى لحماية مجتمعاتنا العربية والإسلامية من الانحلال وما يتبعه من عواقب وخيمة، لذا فإن تنشئة الشباب على ضوابط الدين والأخلاق يخلق رقيبًا عليهم من داخل أنفسهم يحميهم من الانزلاق كلما حاد بهم الطريق، كما أن تفعيل الدور التقويمي والتربوي للمساجد يساهم بشكل كبير في توفير الأمن والاستقرار النفسي للشباب، حيث إن الدين يخرج بهم من نطاق قدرتهم الضيقة لرحاب وسعة قدرة الله، وهذا كفيل بأن يمنحهم القوة التي يواجهون بها صعوبات الحياة برضا كامل وثقة بالنفس وثبات.

(١) المراهقون ووسائل التواصل الاجتماعي: النتائج الرئيسية لاستطلاعات مركز بيو للأبحاث: https://www.pewresearch.org/short-reads/2023/04/24/teens-and-social-media-key-findings-from-pew-research-center-surveys

(٢) تأثير وسائل التواصل الاجتماعي على الشباب، المركز الليبي للدارسات الاستراتيجية: https://lcss.gov.ly/articles/blog/post-128/

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٢٤٥٥/٨).

## نصائح مفيدة للوالدين من أجل احتواء الأبناء

يقول الدكتور عبد الحميد أحمد أبو سليمان في كتابه (أزمة العقل المسلم): «ومع ما عليه حال العالم اليوم، ومع ما عليه حال الغرب اليوم، لم يعد أمام إنسان هذا العصر، ولم يعد أمام الأمة الإسلامية إلا الإسلام ومنطلقاته لتعيد ركب الأمة والإنسانية من جديد إلى الصراط المستقيم، وإعادة التوازن والسلامة إلى مسيرة الإنسانية والحضارة على أساس منهاج الحق والعدل والغاية الأخلاقية القويمة، تبني ولا تهدم، وتصلح ولا تفسد، وتحقق مشيئة الله في الإصلاح والإعمار»[1].

لذا فالحل يكمن في التربية منذ الصغر على مبادئ الدين وقيمه، وجعلها المرجع الأول لكل الأفعال التي يقوم بها الأبناء: الصدق، الأمانة، الجود والرحمة وغيرها من الخصال الجميلة هي أخلاق دينية قبل أن تكون قيمًا إنسانية، وذلك الربط يجعل الأبناء أكثر قوة في مواجهة مغريات الحياة، ويمكن أن نضع عدة نقاط لتحقيق التربية الإسلامية السليمة، ومنها:

١. تعزيز مفاهيم حب الله وتوقيره لدى الأبناء، وجعله المرجع الأول لتقييم كل أفعاله.

٢. الحرص على أداء العبادات بشكل جماعي في أجواء إيمانية هادئة مثل الصلاة في جماعة، وقراءة القرآن، والذكر، والصيام.

٣. حثهم على الأخلاق الحميدة من منطلق إيماني قبل أن يكون إنسانيًا.

٤. اصطحابهم لدور العبادة وتعظيم قيمتها في نفوسهم؛ كصلاة الجمعة، والعيد، والتراويح، وكذا حضور المناسبات الدينية التي تقام في دور العبادة.

٥. غرس أسس العقيدة فيهم عن طريق القصص والنقاش الممتع.

٦. من المهم أن يقدم الوالدان القدوة الحسنة لأبنائهما وأن تطابق أقوالهم أفعالهم.

هذه بعض الأمور التي يجب أن يحرص الوالدان عليها لغرس قيم الدين داخل نفوس النشء.

### الاحتواء مع كثير من الحب:

قال رسول الله ﷺ قال: (كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول)[2]. إن حماية الوالدين لأبنائهما

(١) أزمة العقل المسلم، ص (١١٩).
(٢) أخرجه أبو داود (١٦٩٢).

فرض ديني لا مناص منه، لذا فمن الواجب عليهما أن يحتضنا أولادهما ويمنحانهم من الحب والاحتواء ما يعينهم على مجابهة ما يواجهونه بالخارج من انحراف وانحلال قد يعبث بعقولهم ويحيد بهم عن الطريق، وقد يصيبهم بالاكتئاب والقلق الدائم، مصداقًا لقول رسول الله ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسؤول... والرجل راع على أهله وهو مسؤول، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة)[١].

ومن هنا فواجب الرعاية يتخطى الرعاية المادية إلى الرعاية الأخلاقية؛ الدينية والنفسية، وكذا على الوالدين أن يكونا القدوة الحسنة لأبنائهما، حتى يقتدوا بهما في السلوك والأخلاق، ولا يغيب الدور الرقابي والتوجيهي للوالدين مع الحرص على استخدام أساليب مقنعة منطقية عند التعامل مع الأبناء؛ فذلك الجيل لا يجدي معه العنف أو التوجيهات الصارمة، بل يحتاج للاحتواء مع كثير من الحب.

ولترسيخ احتواء الأبناء يجب أن يحرص الوالدان على عدة أمور، منها:

١. احترام مشاعرهم والتفاعل معهم في أوقات الفرح والحزن.

٢. غمرهم بالمشاعر الفياضة والكلمات الطيبة.

٣. تقبل عيوبهم والسعي لإصلاحها دون تجريح من منطلق أن دور العباد الإصلاح، أما الصلاح فهو هبة ربانية من الله عز وجل.

٤. تخصيص وقت لهم لمناقشتهم فيما يشغلهم وتوجيههم في الاتجاه الصحيح بالإقناع لا الأوامر.

٥. الحرص على توفير جو أسري دافئ يتشاركون فيه السمر والنقاش.

٦. الرفق بهم وقت الخطأ ليشعروا أنهم ومهما أخطؤوا يبقى الوالدان هما ملاذهم الآمن الذي يحتوي ويوجه ويدعم.

هذه بعض الأفكار التي ترسخ الحب في نفوس الأبناء وتخلق مساحة آمنة بينهم وبين الآباء.

> **واجب الرعاية يتخطى الرعاية المادية إلى الرعاية الأخلاقية والدينية والنفسية، مع الرقابة والتوجيه المستمر**

## التربية قبل التعليم:

ظهر الانحلال في مجتمعاتنا العربية يوم تخلى المعلمون عن رسالتهم التربوية، وتخلت المدارس والجامعات عن دورها في التربية والتوجيه، لذا فإن استعادة مؤسساتنا التعليمية لدورها التربوي مقدم على دورها التعليمي، واستعادة المعلم لقيمته وهيبته مقدم على تحقيق المكاسب المادية.

«تؤكد الدكتورة أمل عبد الله القبيسي -عضو المجلس الوطني الاتحادي- ضرورة اهتمام المدارس برصد الظواهر والسلوكيات السلبية التي تصدر عن بعض الطلبة أولاً بأول، ومن خلال التربويين يتم تصنيفها حتى توضع لها الحلول المناسبة، ومن ثم توعية المعلمين والقائمين على المدارس بكيفية التصدي لها ومعالجتها بحكم قربهم من طلابهم، كما يجب أن تتضمن مناهجنا الدراسية دروس ومفاهيم التوعية السليمة للأبناء، وزرع المحبة والتآخي بين الطلبة أنفسهم، وتعزيز علاقة الاحترام بين المعلم والطالب»[٢].

إن من أولويات الدول التي تسعى لاحتواء الشباب وإعدادهم الإعداد الجيد ليكونوا القادة الزعماء أن تعيد للمؤسسات التعليمية دورها التربوي الداعم والموجه للشباب، ويتمثل ذلك في عدة نقاط، أهمها:

١. دعم المعلم تربويًا ليكون قائدًا وقدوة ويستعيد مكانته التربوية لدى الطلاب.

٢. وضع القوانين المحفزة للطلاب على الانضباط واحترام المؤسسة التعليمية.

٣. الاهتمام بالأنشطة الصفية وغير الصفية لتفريغ طاقة الطلاب فيما يفيد وتنمية الإبداع لديهم.

٤. تعزيز القيم الأخلاقية الإسلامية لدى الطلاب والحرص على تفعيلها داخل المؤسسة التعليمية.

والمؤكد أن استعادة المؤسسات التعليمية لدورها التربوي جنبًا إلى جنب مع التعليمي يساهم بشكل

(١) أخرجه البخاري (٥١٨٨) ومسلم (١٨٢٩).

(٢) مقال: انحراف الأبناء يؤرق الميدان التربوي، صحيفة الخليج، بتاريخ ١٧-٧-٢٠١٠.

كبير في ترسيخ القيم لدى النشء وتحفيزهم على السلوك الإيجابي وتقويم السلوكيات السلبية.

### الاحتواء المجتمعي وتمكين الشباب:

عندما ينفتح المجتمع على الشباب ويعزز لديهم الثقة بالنفس ويخلق هدفًا قوميًا أو اجتماعيًا يلتف الشباب حوله هنا تغيب المشاكل النفسية.

فالشباب يشعر بالاكتئاب لتغييبه المتعمد عن المشهد، وهذا خطأ كبير يعاني منه الشباب في مجتمعاتنا العربية، والحل هو تمكين الشباب في كافة المجالات، والاستفادة من طاقاتهم الخلاقة وسواعدهم الفتية في البناء والتنمية قبل أن تتحول رغمًا عنا للهدم والتخريب.

لذا فمن واجب المجتمع أن يعيد بناء منظومة الدين والقيم والأخلاق لدى الشباب، وأن يوفر لهم بيئة صحية وآمنة تُشعرهم بالانتماء والثقة بأنفسهم، وكذا توفير فرص التعليم والتدريب المناسبة لهم لتمكينهم من النجاح والتطور.

وكذا من المهم استغلال المبدعين من الشباب والاستفادة من قدراتهم الخلاقة لتحقيق النهضة، وتكوين كوادر قيادية يمكنهم أن يكونوا قدوة للشباب في العمل والتميز.

إن الشباب بما يملكون من طاقات خلاقة يمكنهم أن يكونوا ركائز النهضة لأي أمة تسعى للتقدم، ولكن من المهم الإعداد الجيد لهم، واستغلال طاقاتهم الفياضة في البناء والنهضة.

### حافظوا على الشباب فهم عماد الأوطان:

«تلعب فئة الشباب دورًا محوريًّا في نهضة الأمم وتقدمها، فهم عماد الأمة وحاملو لواء مستقبلها، إذ يمتلكون الطاقة والحيوية والإبداع اللازم لتحقيق التطور والابتكار، وإذا ما أُحسن استثمار طاقاتهم وتوجيهها بشكل صحيح، يمكن للشباب أن يقودوا الأمة نحو آفاق جديدة من التقدم والتنمية.

فالشباب يمتلكون طاقة متجددة تمكنهم من العمل الدؤوب والسعي لتحقيق الأهداف، هذه الطاقة تجعلهم قادرين على مواجهة التحديات، وتحقيق الإنجازات التي تعود بالنفع على المجتمع.

ويتميز الشباب بالتفكير الخلّاق والقدرة على تقديم حلول مبتكرة للمشاكل القائمة، مما يساهم في تطوير المجتمع والنهوض به، وهم أكثر الفئات استعدادًا للتغيير ومواجهة العادات السلبية والتقاليد البالية، ودورهم في المطالبة بالإصلاحات الاجتماعية والسياسية يجعلهم قوة لا يمكن تجاهلها في أي مجتمع»[1].

يمثل الشباب نسبة ٢٥٪ من سكان الوطن العربي أي ما يعادل ربع سكان الوطن العربي، ومن هنا فإن حمايتهم من الانحراف، وتنشئتهم على القيم والأخلاق واجب ديني ووطني يتسع من نطاق الفرد والأسرة لنطاق المجتمع بأكمله.

ونختتم بقول الأديبة الأميركية هيلين كيلر: ليس من الممكن أن تتراجع الحضارة إلى الوراء بينما يوجد شباب في هذا العالم، قد يبدو الشباب مُتجهم الوجه، لكنه سيُقدم للعالم بَصمته الخاصة.

> **من واجب المجتمع أن يعيد بناء منظومة الدين والقيم والأخلاق لدى الشباب، وأن يوفر لهم بيئة صحية وآمنة تُشعرهم بالانتماء والثقة بأنفسهم، وكذا توفير فرص التعليم والتدريب المناسبة لهم لتمكينهم من النجاح والتطور**

(١) مقال: دور الشباب في نهضة الأمة وسُبل تمكينهم، للدكتور كمال أصلان، موقع الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين: https://iums.me/36775

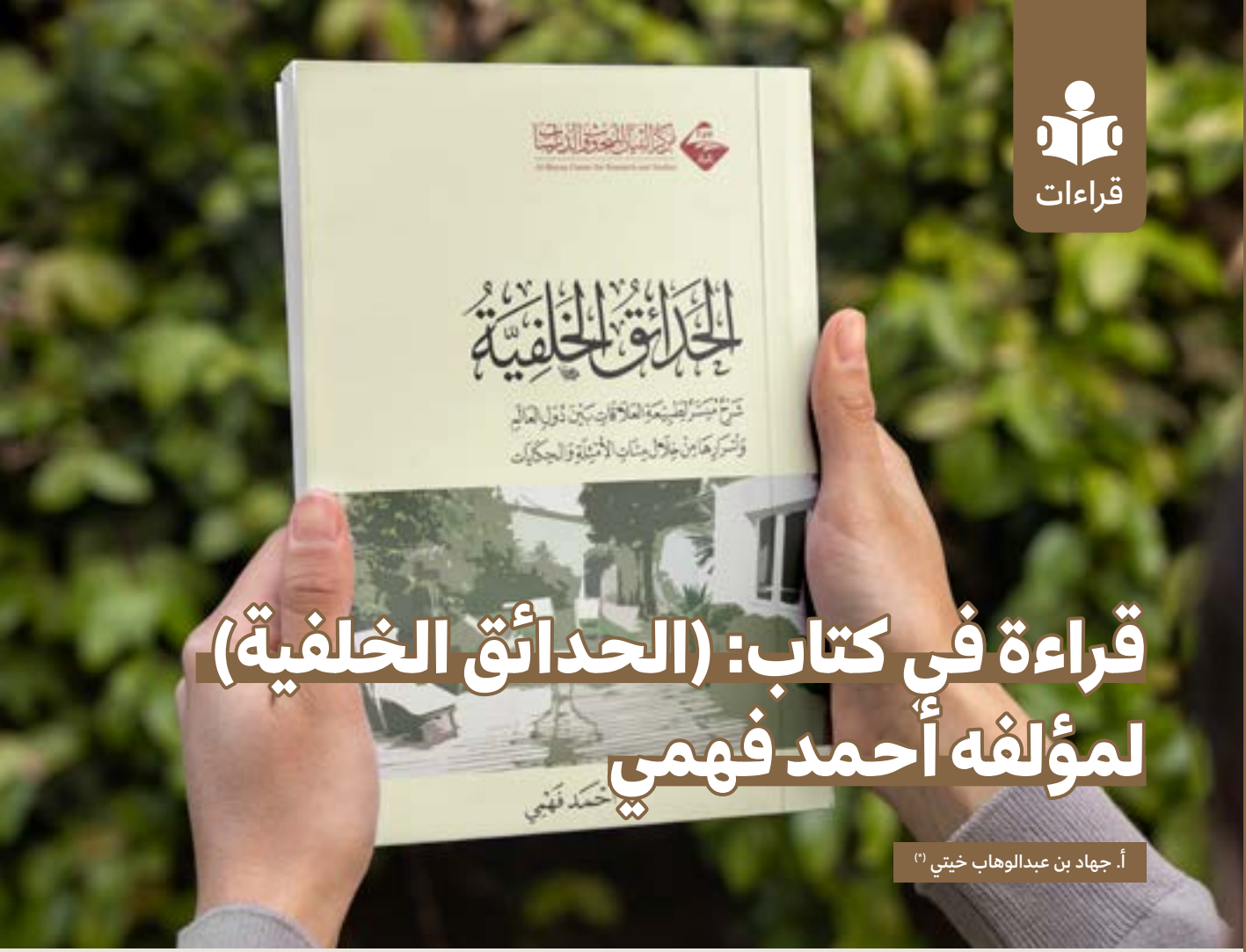


# قراءة في كتاب: (الحدائق الخلفية) لمؤلفه أحمد فهمي

أ. جهاد بن عبدالوهاب خيتي (*)

**هل تجري التحوّلات السياسية الكبرى في منطقتنا على نحو عشوائي، أم أنها نتاج حسابات وتدافعات أعمق تحكم مساراتها؟ لماذا تتكرر أنماط التدخّل والانقسام وصناعة الأزمات في أكثر من بلد رغم اختلاف السياقات؟ وهل يمكن فهم ما جرى في العراق وما شهدته سوريا وما يحدث في أماكن أخرى ضمن إطار واحد يفسّر هذه التشابكات؟ يحاول الكتاب الذي بين أيدينا أن يقدّم إجابة عن هذه الأسئلة، عبر قراءة مختلفة لطبيعة العلاقات الدولية وآليات إدارتها في الواقع المعاصر.**

## عن الكتاب ومؤلّفه:

يقع كتاب (الحدائقُ الخلفيةُ: شرحٌ ميسّر لطبيعة العلاقات بين دول العالم وأسرارها من خلال مئات الأمثلة والحكايات) في (٢٥٣) صفحة من القطع المتوسّط، طبعه مركز البيان للبحوث والدراسات التابع لمجلة البيان سنة ١٤٣٩هـ.

الكتاب عمل فكري سياسي يتناول طبيعة العلاقات الدولية من زاوية تحليلية تفسيرية، ويعتمد على تتبع الوقائع والأمثلة التاريخية والمعاصرة لفهم آليات الهيمنة، والتبعية، وصناعة النفوذ في النظام العالمي.

مؤلّفه هو: أحمد فهمي، باحث سياسي، صدر له ١٥ كتابًا في مجالات السياسة والإعلام السياسي، نشرَ كثيرًا من الدراسات والبحوث المحكّمة.

## مدخل:

يقدّم كتاب (الحدائقُ الخلفيةُ) قراءةً تفسيرية لطبيعة العلاقات الدولية كما تُمارَس في الواقع، لا

(*) المشرف العام على موقع (على بصيرة)، ماجستير في السنة وعلوم الحديث.

كما تُعرض في الأدبيات النظرية المجرّدة. فالكتاب ينطلق من فرضية أساسية مفادها أنّ السياسة -رغم اتصالها المباشر بحياة الناس وواقعهم ومستقبلهم- تظلّ من أعقد المجالات فهمًا، لا بسبب غموضها، بل بسبب طبيعتها المتحرّكة وتشابك مستوياتها، وتداخل ما هو معلن فيها بما هو خفي.

ويرى المؤلف أنّ الاقتصار على تحليل المعلومات المتداولة أو الخطابات الرسمية لا يفضي إلى فهم حقيقي لما يجري في عالم السياسة؛ لأنّ هذه المعطيات لا تمثّل سوى جزء محدود من الصورة. أما الفهم الأعمق، فيكمن في النظر إلى السياسة بوصفها عملية ديناميكية قائمة على الحركة والتفاعل، وفي تتبّع الوقائع والأحداث ضمن سياقها المتغيّر، لا باعتبارها وقائع معزولة.

في هذا الإطار، يطرح الكتاب مفهوم (الحدائق الخلفية) بوصفه مفتاحًا تفسيريًا لفهم العلاقة غير المتكافئة بين (دول المركز) و(دول الأطراف)، حيث تُدار الأخيرة بوصفها مجالات تابعة تُستثمر مواردها، ويُتحكَّم في خياراتها، وتُصنَع لها الأزمات والذرائع التي تبرّر التدخّل فيها بأشكال متعدّدة. ولا يكتفي المؤلف بعرض هذا المفهوم في بُعده النظري، بل يعزّزه بالكثير من الأمثلة والحكايات التي توضّح آليات التحكّم، وصناعة المسوّغات، وإدارة الأزمات داخل هذا النظام العالمي.

تهدف هذه القراءة إلى إبراز الفكرة المركزية للكتاب ومساره التحليلي، مع التركيز على الكيفية التي تتشكّل بها (الحدائق الخلفية) وكيف تُدار في الواقع السياسي المعاصر.

> **السياسة لا تُفهم من البيانات المعلنة وحدها، بل من تتبّع حركتها بوصفها شبكة تفاعلات تتكشف مع الزمن**

## الحدائق الخلفية بوصفها إطارًا تفسيريًا للعلاقات الدولية:

ينطلق أحمد فهمي في الفصل الأول من كتابه من محاولة ضبط مفهوم (الحديقة الخلفية) بوصفه مدخلاً تفسيريًا لفهم العلاقات الدولية المعاصرة. وهو مفهوم وإن بدا في ظاهره استعاريًا إلا أنّه -كما يبيّن المؤلف- متجذّر في الثقافة الغربية ذاتها؛ حيث يُنظر إلى الحديقة الخلفية للمنزل بوصفها فضاءً خاصًا تُمارَس فيه أنشطة لا يُراد لها أن تكون في الواجهة، ولا تُعرض على العامة، بخلاف الحديقة الأمامية التي تعكس الصورة الرسمية والمنظّمة للبيت. هذه الثنائية -في نظر المؤلف- تُسقَط على عالم السياسة لتعبّر عن الطريقة التي تتعامل بها الدول الغربية المتقدمة مع دول العالم الثالث.

وفق هذا التصور، يقوم النظام العالمي على تقسيم غير متكافئ للدول إلى قسمين رئيسين:

(دول المركز) وهي الدول الصناعية الرأسمالية المتقدّمة تكنولوجيًا.

و(دول الأطراف) أو (الهامش)، وهي الدول الأقل تطورًا صناعيًا والأضعف اقتصاديًا وسياسيًا. وتقوم فكرة (الحدائق الخلفية) على أنّ دول المركز تنظر إلى دول الأطراف بوصفها مجالاً تابعًا لها، يُدار ويُستثمر بما يخدم مصالحها العليا، لا بوصفها دولاً مستقلة ذات سيادة مكتملة.

هذا التصنيف لا يعني مجرّد تفاوت في مستويات التنمية، بل يعبّر عن علاقة بنيوية لها أبعاد متعدّدة:

- فأوّل ما تعنيه هو التبعية؛ أي أن تكون الدولة الطرفية مرتبطة بدول المركز اقتصاديًا وسياسيًا وأمنيًا، بحيث لا تملك حرّية القرار الكامل في شؤونها المصيرية.
- وثاني ما تعنيه أنّ هذه الدول لا يُراد لها في منطق النظام العالمي القائم أن تتحوّل إلى دول غنيّة؛ فالعالم كما يقول: «لا يتحمل أن تكون الدول كافّة غنية، بل إنّ هذه وضعية لا يمكن الوصول لها أساسًا؛ لأنّه إذا تطورت الدول الفقيرة كافّة وتحوّلت إلى دول صناعية لديها اكتفاء ذاتي فإنّ ذلك سيؤدّي إلى تدهور الاقتصاد العالمي وتراجع موازين القوى القائمة، وستصبح التنافسية كابوسًا لا يطاق بالنسبة للقوى الاقتصادية الكبرى؛ لذلك يجب أن يظلّ عالم الدول الفقيرة كما هو إجمالاً، وكذا عالم الأغنياء، المطلوب فقط هو تحسين قدرة الفقراء على الاستهلاك والتعاطي مع منتجات العالم الغربي الاستهلاكية المتطوّرة».
- الأمر الثالث يتمثّل في وظيفة دول الأطراف بوصفها مصدرًا للمواد الخام والغذاء لصالح دول المركز، وفي سبيل تأمين هذه الوظيفة لا

ترى القوى الكبرى بأسًا في التدخّل المباشر أو غير المباشر للسيطرة على الموارد، حتى لو أدّى ذلك إلى إفقار المجتمعات المحلّية أو وقوع كوارث إنسانية واسعة، كما حصل في الهند عندما أخذت بريطانيا محاصيلها الزراعية ممّا أدّى إلى مجاعة مات فيها أكثر من ثلاثة ملايين نسمة، وعلّق حينها تشيرشل بوقاحة: «إنني أكره الهنود ... كانت المجاعة خطأهم لأنّهم يلدون مثل الأرانب»! وفي هذا السياق يبرز البعد اللاأخلاقي الكامن في منطق (الحديقة الخلفية)، حيث تُختزل قيمة الدول في أرضها وثرواتها، بينما تُعامل الشعوب بوصفها مجرّد أدوات أو تروس في آلة الاقتصاد العالمي.

> **تقوم فكرة (الحدائق الخلفية) على أن دول الأطراف لا تُعامل بوصفها كيانات مستقلة تمامًا، بل بوصفها مجالات تُدار وتُضبط حركتها بما يخدم مصالح دول المركز في النظام الدولي**

### نظرية مالتوس:

يربط المؤلف هذا المنطق بنظرية (مالتوس) السكانية، لا بوصفها نظرية ديموغرافية محايدة، بل باعتبارها إطارًا فكريًا أثّر بعمق في العقلية السياسية الغربية. فقد اعتبر مالتوس أنّ الصراع بين تزايد السكان ومحدودية الغذاء صراع حتمي، وأنّ صعوبة العيش يجب أن تُحسَم في مكان ما، وعلى حساب قطاع واسع من البشر. ويشير المؤلف إلى أنّ الدول الغربية حسمت هذا الخيار مبكّرًا، وقرّرت ألّا تتحمل نصيبها من هذه الصعوبة، لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل؛ مما يفضي عمليًا إلى استراتيجية إفقار دائم لقطاعات واسعة من سكان العالم. وقد تجسّد هذا المنطق تاريخيًا في التوسع الاستعماري، ثم استمر -بعد نهاية الاستعمار المباشر- بصيغ أكثر تعقيدًا، حيث تحولت الدول المستعمَرة سابقًا إلى (حدائق خلفية) تُدار بمعايير سياسية واقتصادية وعسكرية مختلفة عن تلك المطبّقة في العالم الغربي.

ويستعين المؤلف بمثال تصويري يُعرف بـ(قارب النجاة) لتقريب الفكرة، حيث يُشبَّه العالم بقاربٍ محدود الحمولة لا يتّسع للجميع في آنٍ واحد. وبحسب هذا التصوّر لا يُطرح السؤال عن كيفية إنقاذ الجميع، بل عمّن يُسمح له بالبقاء داخل القارب ومن يُترك خارجه، ومن هذا المنظور يفسّر المؤلف طريقة تعامل دول المركز مع دول الأطراف.

ويختم المؤلف هذا الإطار النظري بالتنبيه إلى أنّ دول الأطراف ليست في مستوى واحد من التبعية؛ فبعض الدول نجحت في تحقيق قدر من الحركة خارج هذا القيد ولو بدرجات متفاوتة، كما أنّ دول المركز نفسها ليست كتلة واحدة متجانسة. غير أنّ هذه الاستثناءات لا تنقض القاعدة العامة، بل تؤكد أنّ منطق (الحدائق الخلفية) ما يزال أحد المفاتيح المركزية لفهم طبيعة النظام العالمي القائم.

## خيوط الماريونت وآليات التحكم غير المباشر:

تعتبر (خيوط الماريونت) وصفًا دقيقًا لطبيعة العلاقة بين دول المركز ودول الأطراف؛ فكما تتحرك الدمى على خشبة المسرح وفق خيوط خفية لا يراها المشاهد، تتحرك دول الأطراف ضمن منظومة من التأثيرات والضغوط التي تُمارَس من خارجها، دون حاجة إلى إدارة مباشرة أو احتلال فجّ في معظم الأحيان.

فالقوى الكبرى لا تدير حدائقها الخلفية بالقوة الصلبة وحدها، بل تعتمد أساسًا على إدارة غير مباشرة تقوم على التأثير، والتوجيه، والاحتواء، واستباق المخاطر، وهذه الإدارة غير المباشرة أكثر كفاءة وأقل كلفة، وتُبقي على واجهة شكلية للسيادة، في حين يجري التحكم الفعلي في مراكز القرار.

يتناول الكتاب أساليب وأدوات التحكّم في (الحدائق الخلفية) من خلال محورين أساسيين: الجهات المستهدفة، وأدوات التحكم.

والمؤلف في تناوله لأساليب أدوات التحكم يقول: إنّ ذلك يجري من خلال محورين أساسيين: الجهات المستهدفة وأدوات التحكم.

### أولاً/ الجهات المستهدفة، وهي المؤسسات والتجمّعات والأشخاص:

١. **المؤسسات:** ويقصد بها غالبًا المؤسسات السياسية؛ لأنّها الأكثر تأثيرًا، ولا سيما رأس هذه المؤسسة؛ لأنّه غالبًا هو مَن يمثل الدولة ويتفرّد بقراراتها، ومن أمثلة التحكّم: أنّ رئيس إحدى الدول الآسيوية كان يتقاضى راتبًا مقداره مليون دولار من CIA ولمدة عشرين عامًا!

يضيف المؤلف قائلاً: «مشكلة النخب السياسية في كثير من جمهوريات الحدائق الخلفية ذات الديمقراطيات الزائفة لا تفرز إلا شخصيات قابلة للتحكّم أساسًا، وهذا يجعلها فريسة سهلة لمحرّكي الدمى الذين لا يحتاجون إلى بذل جهد كبير في تركيب خيوطهم داخل المؤسسات السياسية، بل إنّه في أحيان كثيرة يسعى هؤلاء بأنفسهم بحثًا عمّن يتحكّم بهم»، ويضرب على ذلك مثالاً بمنظمة التحرير الفلسطينية التي كانت تبحث عمّن يدعمها بغضّ النظر عن الإملاءات التي تملى عليها، وهذا ناتج عن التيه السياسي الذي أدّى إلى قابلية التحكّم، والملاحظ أنّ البعض بحكم العادة يدمن تقديم فروض الطاعة حتى لو لم يجبره أحد.

٢. **التجمعات:** ويقصد بها التجمّعات العرقية أو الطائفية أو الأقليات بصفة عامة أو حتى الجاليات الأجنبية التابعة للدولة المستهدفة، وهذه الأقلّيات توفّر بيئة خصبة للاختراق، كما يمكن توظيفها لتنفيذ جميع المهام والأهداف المتعلّقة بالتحكم والسيطرة.

من الأمثلة على ذلك: أنّ البريطانيين كانوا على تواصل قوي مع الرموز الشيعية في جنوب العراق لدرجة بدأ الشيعة يعتبرون أنفسهم أفضل حالاً مع الحكم البريطاني ويفضّلونه على أيّ حكم سنّي للبلاد. وكذا فعل الأمريكان، حتى قال القزويني -أحد رجال الدين الشيعة العراقيين- لبول بريمر: إنّه معجب بالديمقراطية كثيرًا، وأنّه يجب أن يكون العراق الولاية الأمريكية الثالثة والخمسين!

يضيف المؤلف أنّه لا يشترط أن تكون التجمّعات المستهدفة أقلية عرقية أو دينية فقط، بل يمكن أن تستغل بعض الدول جالياتها في دول أخرى لتوظيفها في تنفيذ هذه المهام، وهذا ما قامت به إسرائيل ممثّلة في الموساد الذي كان يجنّد اليهود المقيمين في دول أخرى للقيام ببعض المهام، ويضرب على ذلك مثالاً بالرسوم المسيئة وأنّ الذي أوعز بها يهوديٌ أوكرانيٌ له نشاط كبير في دعم السياسة الأمريكية، والهدف هو الدفع بأجندة صراع الحضارات بين العالم الإسلامي والغرب تحت ستار حرية التعبير.

٣. **الأشخاص:** تستهدف دول المركز أشخاصًا داخل الدولة المستهدفة بحسب موقع هذا الشخص وتقييمه، وبحسب الغرض المطلوب منه تحقيقه، فقد يكتسب هذا الشخص أهمية بسبب وظيفته أو منصبه أو نفوذه أو تأثيره؛ فيتمّ تجنيده ليكون عميلاً لهم ومخبرًا، ومن ذلك مثلاً السائق الخاص لياسر عرفات الذي كان يزوّد الموساد بتقارير شبه يومية بالهاتف أو بالبريد.

هناك أسلوب آخر في استهداف الأشخاص وهو هنا لا يركّز على الشخص بعينه، وإنّما يستهدف بناء نخبة مؤثّرة تدين بالولاء للدولة المستهدِفة، بمعنى آخر: بناء نخبة يمكن أن تشكّل تأثيرًا على الرأي العام أو على اتخاذ القرار في مختلف المجالات، ومن أمثلة ذلك: قيام إسرائيل بمشروعات وبرامج تدريبية تتفاعل مع المجتمعات الأفريقية؛ مما يجعل الذين ينفذّون هذه المشروعات ويحصلون على التدريب يتفاعلون مع إسرائيل بطريقة إيجابية وربما يؤثرون في المجتمع لصالحها.

> **لا تُدار (الحدائق الخلفية) غالبًا بتدخل فجّ مباشر، بل عبر خيوط غير مرئية تمتد إلى المؤسسات والنخب والتجمعات، بحيث تتحرك الدولة من الداخل وفق اتجاهات مرسومة لها سلفًا**

### ثانيًا/ أدوات التحكم:

ينتقل المؤلف إلى عرض الأدوات التي تُستخدم لتحريك (الدمى) داخل (الحدائق الخلفية)، ويمكن إيجازها في ثلاث أدوات رئيسة: أجهزة الاستخبارات، والواجهات المؤسسية، والهيئات الدبلوماسية.

١. **أجهزة الاستخبارات:** وهي الأداة الأكثر تقليدية وفاعلية، وتعمل غالبًا من خلف واجهات مدنية أو مؤسساتية، بما يسمح لها بالتحرك بحرّية داخل المجتمعات المستهدفة، دون أن تبدو طرفًا رسميًا في المشهد.

٢. **الواجهات المؤسسية:** ويُقصد بها مؤسسات تمارس أنشطة علنية في مجالات البحث، أو التدريب، أو العمل الخيري، أو النقابي، لكنها في الواقع تؤدّي وظائف استخباراتية أو سياسية غير مباشرة. ويشير المؤلف إلى أنّ نجاح هذه الواجهات مرهون بعدم ظهور ارتباطها المباشر بالحكومات التي تقف خلفها، وهو ما يجعل المؤسسات الخيرية ومنظمات المجتمع المدني أدوات مثالية في هذا السياق.

٣. **الهيئات الدبلوماسية:** والتي لا يقتصر دورها -كما يوضّح المؤلف- على المهام التقليدية المعروفة، بل تتجاوز إلى لعب دور مباشر في إدارة الشأن الداخلي للدول الطَرَفية، عبر التواصل مع مختلف الفاعلين السياسيين والمجتمعيين، وتقديم النصح والدعم، وأحيانًا ممارسة الضغط أو عقد الصفقات. ويقدّم المؤلف مثالاً واضحًا لذلك بتحوّل السفارة الأمريكية إلى مراكز نفوذ واسعة تتجاوز بكثير الدور الدبلوماسي الكلاسيكي، لتصبح في العراق مركز السلطة السياسية في البلاد، ولتصبح في لبنان أشبه بقاعدة عسكرية تناطح القاعدة العسكرية الروسية في طرطوس السورية.

يخلص هذا الفصل إلى أنّ (خيوط الماريونت) لا تعمل منفردة، بل ضمن شبكة متكاملة من الأدوات والجهات، تجعل التحكم في دول الأطراف عملية تراكمية طويلة الأمد، لا تحتاج في الغالب إلى تدخل عسكري مباشر، لكنها تكون أكثر إحكامًا وأطول أثرًا. وبهذا يكتمل الانتقال من تعريف (الحديقة الخلفية) بوصفها مفهومًا، إلى فهم كيف تُدار هذه الحديقة عمليًا من الداخل.

## التفاوض، الشطرنج السياسي، وصناعة المسوّغات: كيف تُدار الأزمات في الحدائق الخلفية؟

بعد أن وضع المؤلف الإطار المفاهيمي لفكرة (الحدائق الخلفية)، وشرح آليات التحكّم غير المباشر، انتقل إلى مستوى أكثر عملية، يركّز فيه على كيفية إدارة الأزمات داخل دول الأطراف، لا بوصفها إخفاقات عارضة أو انزلاقات غير محسوبة، بل باعتبارها مسارات سياسية تُدار بوعي، وتُستثمر لتحقيق أهداف بعيدة المدى. وفي هذا السياق تتداخل ثلاثة محاور كبرى: التفاوض غير المتكافئ، والتفكير الاستراتيجي طويل النفس، وصناعة المسوّغات والذرائع.

### أولاً- التفاوض بوصفه موسمًا دائمًا للتنازلات:

يعرض المؤلف التفاوض في سياق العلاقات بين دول المركز ودول الأطراف بوصفه عملية غير متكافئة بطبيعتها؛ حيث تدخل دول الحدائق الخلفية إلى طاولة المفاوضات وهي محمّلة بإحساس مسبق بالضعف، سواء كان هذا الضعف ناتجًا عن اختلال حقيقي في موازين القوة، أو عن عوامل نفسية وسياسية متراكمة. وفي مثل هذا السياق لا يُنظر إلى التفاوض باعتباره وسيلة لتحقيق أهداف استراتيجية واضحة، بل يتحول في كثير من الأحيان إلى غاية في ذاته، يكون الهدف منه مجرّد البقاء داخل العملية التفاوضية، مهما كان الثمن.

ويشير المؤلف إلى أنّ من أخطر ما يميز هذا النمط من التفاوض هو تقديم التنازلات قبل تحديد المقابل، أو تقديمها مقابل وعود فضفاضة باستمرار الحوار أو تحسين العلاقات. كما أنّ كثيرًا من المفاوضين في دول الأطراف يفتقرون إلى القدرة على المساومة السياسية الحقيقية، حتى عندما يمتلكون أوراق قوة يمكن توظيفها؛ فينتهي الأمر بهم إلى تحقيق أقل المكاسب الممكنة، أو إلى الخروج من المفاوضات وقد خسروا ما كان في حوزتهم دون مقابل يُذكر.

ومن السمات اللافتة التي يبرزها المؤلف أيضًا: النمطية في السلوك التفاوضي (منظمة التحرير الفلسطينية على سبيل المثال)، حيث تسير بعض الأطراف على وتيرة ثابتة في تقديم التنازلات؛ مما يجعل الخصم قادرًا على التنبؤ بخطواتها التالية واستغلالها إلى أقصى حدّ. وفي مثل هذه الحالات لا يجد الطرف الأقوى أي دافع للتوقف أو التراجع، طالما أنّ الضغوط تؤتي ثمارها، وطالما أنّ الطرف المقابل يستجيب لها في كل مرة.

### ثانيًا- الشطرنج السياسي ومنطق الحركة الطويلة:

يستعين المؤلف بلعبة الشطرنج لتوصيف طبيعة الصراع السياسي بين دول المركز ودول الأطراف، لا بوصفها تشبيهًا بلاغيًا، بل كنموذج يفسّر منطق الحركة الطويلة الذي يحكم العلاقات الدولية. فالمسألة -في نظره- لا تتعلق بفهم السياسة من خلال موقف واحد أو حدث منفرد، بل بإدراك أنّ ما يجري هو لعبة استراتيجية تُدار على مدى طويل، وتُحسب فيها الخطوات بميزان النتائج المستقبلية لا بردود الأفعال الآنية.

المشكلة الأساسية لا تكمن في تعقيد اللعبة ذاتها، بل في أنّ كثيرًا من دول الأطراف لا تدرك أصلاً أنّها داخل لعبة شطرنج، أو أنّها تتعامل معها بعقلية لاعب مبتدئ يتفاعل مع كل حركة بوصفها نهاية المباراة. في المقابل تتحرك دول المركز بعقلية اللاعب المحترف، الذي لا يخطط للحركة القادمة فقط،

بل يضع سيناريوهات متعدّدة، ويُخفي نواياه، ويتحكّم في التوقيت ومستوى التصعيد، ويستثمر الزمن بوصفه عنصرًا حاسمًا في الصراع.

ويبرز المؤلف هذا الفرق من خلال أمثلة واضحة على التخطيط الاستراتيجي بعيد المدى؛ فمنذ وقت مبكر أدركت بريطانيا أهمية توطين اليهود في فلسطين، لكنها لم تتعامل مع هذا الهدف بوصفه خطوة واحدة، بل عملت عليه بتدرّج شديد، عبر مراحل متتابعة، مستفيدة من الوقت والتوازنات الدولية، إلى أن تهيأت الظروف المناسبة لتنفيذه. هذا النفس الطويل، وضبط الإيقاع، وتجنّب القفز فوق المراحل، يمثل نموذجًا كلاسيكيًا لعقلية اللاعب المحترف.

وفي السياق نفسه، يوضّح المؤلف أنّ دول المركز حرصت تاريخيًا على المحافظة على إيران كدولة موحّدة وقوية، لأنّها تؤدّي وظيفة جيوسياسية بالغة الأهمية، إذ تشكّل حاجزًا يفصل شرق العالم الإسلامي عن غربه، وشماله عن جنوبه؛ ولهذا وعلى خلاف ما جرى مع دول إسلامية أخرى، لم تُبذل جهود جدّية لتقسيم إيران، بل جرى تعزيز دورها الإقليمي ضمن حدود محسوبة.

كما يورد المؤلف مثال لبنان، الذي التقت عنده أطماع قوى متعددة، فقد كان يُراد له في مرحلة سابقة أن يكون دولة مسيحية تؤدي وظيفة حاجز جغرافي في قلب العالم العربي، لكن حين تبيّن أن إيران نجحت في بسط نفوذها عليه عبر أدواتها المحلية، جرى القبول بتحوّله إلى دولة ذات طابع شبه شيعي. المهم -في منطق اللعبة- ليس هوية الكيان، بل أداؤه لوظيفة الحاجز الجغرافي التي تمنع تشكّل وحدة سياسية أو جغرافية في المنطقة.

وفي مقابل هذا التخطيط المحكم، يعرض المؤلف أخطاء متكرّرة تقع فيها دول الأطراف، مثل: سوء تقدير القوة، والتوقّعات الخاطئة لردود فعل الخصم، وفقدان البوصلة في خضمّ الأزمات. ويُضاف إلى ذلك توظيف تكتيكات تفاوضية معروفة، من أبرزها لعبة (الطيّب والشرير) حيث يظهر طرف متشدّد في مقابل وسيط يبدو مرنًا ومتفهّمًا، فيميل الطرف الأضعف إلى الأخير، دون أن يدرك أنّ الطرفين يعملان ضمن الإطار نفسه ويخدمان الهدف ذاته.

ويخلص المؤلف إلى أنّ غياب الرؤية الاستراتيجية، والعجز عن التحكّم في التوقيت ومستوى التصعيد، يجعل دول الأطراف تدور في منتصف رقعة الشطرنج بقطع ناقصة ووضعية متراجعة، تسعى فقط إلى تفادي الخسارة، بينما يواصل اللاعب المحترف إدارة المباراة وفق هدفه النهائي.

> **في السياسة الدولية، لا تُقاس الخطوات بنتائجها الفورية، بل بموقعها في لعبة طويلة النفس، حيث يُصنع المسوّغ قبل التدخل، وتُدار الأزمات بما يضمن إعادة تشكيل موازين القوى لا مجرد احتوائها**

### ثالثًا- صناعة المسوّغات ومسمار جحا:

يبيّن المؤلف أن جزءًا أساسيًا من إدارة (الحدائق الخلفية) يقوم على صناعة مسوّغات دائمة للتدخل والبقاء والارتباط، بحيث لا يبدو التدخل الخارجي فعلاً عدوانيًا أو استعماريًا، بل استجابة مبرّرة لوقائع أو أخطار أو التزامات سابقة. وفي هذا السياق يستعير المؤلف تعبير (مسمار جحا) للدلالة على الذريعة الصغيرة التي تُغرس أولاً، ثم تتحوّل مع الزمن إلى مبرّر دائم للحضور والتدخل.

ومن أبرز هذه المسوّغات: العنف بوصفه أداة سياسية؛ إذ يوضح المؤلف أنّ بعض الحروب لم تكن نتيجة أحداث طارئة، بل جرى تصنيع ذريعـتها أو استثمارها عمدًا، ويورد مثال محاولة الولايات المتحدة إخراج إسبانيا من كوبا، حين انفجرت البارجة الأمريكية (مين) في ميناء هافانا وقُتل عدد كبير من الجنود الأمريكيين، وعلى الرغم من غموض أسباب التفجير حتى اليوم؛ جرى اتهام إسبانيا به، واتُّخذ الحادث ذريعة لإشعال الحرب وطرد الإسبان نهائيًا من كوبا، في نموذج مبكر لصناعة المسوّغ العسكري.

وفي حالات أخرى، يكون قرار التدخّل قد اتُّخذ سلفًا، ثم يُنتظر الحدث المناسب لتبريره. ويضرب المؤلف مثال الغزو الإسرائيلي للبنان، حيث جرى استثمار محاولة اغتيال السفير الإسرائيلي في لندن بوصفها خرقًا للهدنة، لتُطلق بعدها عملية عسكرية واسعة، رغم أنّ قرار الغزو كان قائمًا قبل الحادثة.

كما يركّز المؤلف على التخطيط طويل الأمد لصناعة الذرائع، لا سيما عبر إحداث تغييرات ديمغرافية أو طائفية تُستخدم لاحقًا كمبرر للتدخل، ومن الأمثلة البارزة على ذلك ما قامت به بريطانيا من التحالف مع إيران لنشر التشيّع بين عشائر جنوب العراق؛ بهدف تحويل المنطقة إلى بيئة شيعية خالصة. لم يكن الهدف دينيًا، بل سياسيًا واستراتيجيًا، إذ يتيح هذا الواقع لاحقًا التدخل الدائم بذريعة حماية الطائفة ومراقدها، وفي الوقت نفسه يضعف قبضة والي بغداد على الجنوب والخليج، ويؤمّن طريق شركة الهند البريطانية ومصالحها الحيوية.

وفي السياق ذاته يناقش المؤلف التواطؤ الدولي أو الإقليمي بوصفه أحد أخطر المسوّغات غير المعلنة، ويورد مثال السماح لإيران بأن تؤدّي دور (شرطي الخليج) بعد انسحاب بريطانيا من المنطقة، فقد جرى التوافق بين بريطانيا وأمريكا وفرنسا على منح إيران هذا الدور مقابل اعترافها باستقلال البحرين، ثم السماح لها بالسيطرة على الجزر الثلاث: طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى. وهكذا تحوّل الدور الأمني إلى مسوّغ دائم لتدخل إقليمي تجاوز حدوده الطبيعية.

ويشير المؤلف كذلك إلى مسوّغات أخرى، مثل الاتفاقيات السياسية أو التجارية التي تُوقّع تحت عناوين المساعدة أو الحماية، ثم تتحول إلى أدوات تدخل واسع في الشؤون الداخلية، أو التحذير من أخطار قادمة يُستثمر الخوف منها لدفع الأطراف إلى قرارات لم تكن لتتخذها في ظروف طبيعية.

ويخلص هذا الجزء من الكتاب إلى أنّ المسوّغات ليست عناصر طارئة في السياسة الدولية، بل جزء بنيوي من إدارة (الحدائق الخلفية)، إذ تضمن استمرار التدخل بأشكال مختلفة، وتمنح الهيمنة غطاءً قانونيًا أو أخلاقيًا، مهما تغيّرت الشعارات أو الأدوات.

## العراق نموذجًا: كيف تُصنع الحديقة الخلفية عمليًا؟

يمثّل العراق في هذا الكتاب النموذج التطبيقي الأوضح لكيفية تحويل دولة قائمة إلى (حديقة خلفية) مكتملة الأركان، فلا يتعامل المؤلف مع الحالة العراقية بوصفها استثناءً تاريخيًا أو نتيجة أخطاء عشوائية، بل بوصفها مسارًا مدروسًا مرّ بمراحل متتابعة، يمكن رصدها وتحليلها بوضوح منذ غزو عام ٢٠٠٣م.

ويقسّم هذا المسار في جوهره إلى ثلاث مراحل مترابطة: التمهيد للتفكيك، وزرع المسوّغات، ثم إنتاج مبرّرات البقاء والارتباط.

### أولاً/ التمهيد - تفكيك الدولة من الداخل:

يرى المؤلف أنّ الخطوة الأولى في تحويل العراق إلى حديقة خلفية تمثّلت في هدم ركائز الدولة القديمة، لا في إسقاط النظام السياسي وحده.

**أولى هذه الخطوات** كانت حلّ الجيش العراقي، الذي كان يُعدّ من أقوى الجيوش العربية من حيث العتاد والتنظيم والعدد. ولم يقتصر الأمر على قرار الحلّ الإداري، بل شمل السماح بنهب مخازن السلاح، وسرقة كميات هائلة من الذخائر، وتفريغ مراكز الأبحاث والمنشآت العسكرية الاستراتيجية، وبهذا القرار انهار أحد أهم أعمدة الدولة، وتحوّل السلاح من مؤسسة نظامية إلى أيدي جماعات وميليشيات؛ وهو ما أتاح بيئة مثالية للفوضى المسلحة، وأراح خصوم العراق الإقليميين من جيش كان يُحسب له حساب.

**الخطوة الثانية** تمثّلت في التحالف مع القيادات والأحزاب الشيعية، وهو تحالف لم يكن طارئًا، بل امتدادًا لتجارب تاريخية سابقة، فقد جرى تقديم هذا التحالف بوصفه وسيلة لتحقيق توازن داخلي، لكنّه عمليًا أسّس لبنية سياسية جديدة قائمة على الطائفية، وربط جزءًا من المشهد السياسي العراقي بالقوى الخارجية، وأسهم هذا المسار في إعادة تشكيل مراكز القوة داخل الدولة، وتقديم طائفة بعينها بوصفها الحليف الموثوق للاحتلال.

**أما الخطوة الثالثة** فكانت إعادة هيكلة الاقتصاد العراقي وفق نموذج الاقتصاد المفتوح، بما يسمح بتدفق رؤوس الأموال والشركات الأجنبية دون قيود تُذكر، وقد تولّت سلطة الاحتلال إصدار عشرات القوانين والقرارات التي كرّست هذا التحوّل، وربطت الاقتصاد العراقي طويلاً باتفاقيات والتزامات لا يمكن نقضها بسهولة؛ ما جعل الاستقلال الاقتصادي أمرًا بالغ الصعوبة.

وفي موازاة ذلك، يشير المؤلف إلى مسار بالغ الخطورة تمثّل في تدمير الإنسان العراقي السنّي، عبر تفكيك بيئته الاجتماعية، وإغراقه في دوائر: الفقر، وانعدام الأمن، والاعتقال والإهانة؛ بحيث يُختزل وجوده في تأمين حاجاته الأولية فقط. ويرى المؤلف أنّ هذا المسار لم يكن عَرضيًا، بل

جزءًا من إعادة تشكيل المجتمع العراقي على أسس طائفية متصارعة، بعد أن كان القمع في العهد السابق -على قسوته- يُمارَس باسم الدولة الواحدة لا باسم الطائفة.

### ثانيًا/ زرع المسوّغات - الحرب الأهلية بوصفها أداة:

بعد تهيئة الأرض على هذا النحو، انتقلت أمريكا -وهي الدولة الأساس في الحرب على العراق- إلى المرحلة الأخطر، وهي زرع المسوّغات التي تبرّر التدخل والبقاء، وفي مقدّمتها الحرب الأهلية.

يرى المؤلف أنّ الإدارة الأمريكية كانت تدرك مبكّرًا أنّ تفجير صراع داخلي واسع سيشكّل أقوى مبرر للاستمرار في العراق، وقد صدرت تحذيرات متكرّرة من مسؤولين أمريكيين من اندلاع حرب أهلية، لا بوصفها خطرًا يُراد تفاديه، بل كتمهيد نفسي وسياسي لما هو قادم. وفي هذا السياق جرى الانسحاب من بعض المدن، وتسليم أجزاء من الملف الأمني لجهات محلية؛ بما أخلّ بالتوازن الداخلي ودفع الأمور نحو الانفجار.

ويعرض المؤلف سلسلة من الخطوات التي مهّدت للحرب الأهلية، من ترسيخ الخطاب الطائفي، وتسليح المجتمع عبر ترك مخازن السلاح مفتوحة، إلى البحث عن حدث مفجِّر كبير، وبعد فشل العديد من المحاولات كان تفجير مرقد شيعي في منطقة ذات غالبية سنّية هو الشرارة التي أطلقت العنف على نطاق واسع، وأدخل البلاد في دوامة اقتتال طائفي غير مسبوقة.

كما أظهر المؤلف دور الميليشيات وفرق الموت، واختراق بعضها وتوجيهها لتنفيذ اغتيالات مدروسة تُؤجّج الكراهية المتبادلة، وتدفع المجتمع نحو الانقسام الجغرافي والطائفي، وقد أدّت هذه المرحلة إلى أكبر موجة نزوح داخلي في تاريخ العراق الحديث، واقتراب البلاد من نقطة التفتيت الكامل.

وعندما بلغت الحرب الأهلية مداها جاء التدخل لاحتوائها، بما عزّز الرواية القائلة إنّ وجود القوات الأجنبية ضرورة لمنع الانهيار، وهكذا تحوّلت الكارثة التي صُنعت جزئيًا إلى مبرر للبقاء.

### ثالثًا/ مسوّغات البقاء والارتباط:

في المرحلة الأخيرة، يبيّن المؤلف كيف أُعيد تأطير المشهد العراقي بخطاب جديد يقوم على جملة من المسوّغات المعلنة، من أبرزها: مواجهة الإرهاب، ومنع تجدّد الحرب الأهلية، وتحقيق الاستقرار، وإعادة الإعمار، والحدّ من تمدّد النفوذ الإقليمي. ويلاحظ أنّ هذه المسوّغات لم تُطرَح باعتبارها إجراءات مؤقّتة، بل كحاجات طويلة الأمد؛ ما يعني عمليًا تكريس الارتباط السياسي والأمني والاقتصادي.

ويرى المؤلف أنّ أخطر نتائج هذا المسار تمثلت في نقل المحاصصة الطائفية من المجال السياسي إلى المجال الجغرافي، وخلخلة البنية الاجتماعية، وخلق توافق داخلي وإقليمي على ضرورة استمرار الوجود الأجنبي، حتى لا تتكرر الفوضى التي صُنعت أصلاً لتبرير هذا الوجود.

> **ما جرى في العراق بعد ٢٠٠٣م لم يكن مجرد انهيار داخلي، بل مثالاً مكثفًا على كيفية تفكيك الدولة وإعادة تركيبها لتصبح جزءًا من منظومة التبعية داخل فضاء (الحدائق الخلفية)**

## الخاتمة:

يقدّم كتاب (الحدائق الخلفية) إطارًا تفسيريًا يساعد على فهم العلاقات الدولية بوصفها منظومة تُدار بالتحكم غير المباشر، وصناعة التبعية، وإعادة هندسة الدول والمجتمعات وفق مصالح قوى المركز. وتكمن قيمة هذا الإطار في قدرته على كشف ما يجري خلف الخطابات السياسية المعلنة، وربط الوقائع المتفرقة بمنطق واحد يحكمها.

ولا تتوقف قيمة هذا الكتاب عند تفسير ما جرى في العراق بعد عام ٢٠٠٣م، بل تمتدّ لتعين القارئ على فهم ما جرى ويجري في دول أخرى خضعت لمحاولات تدخل وإعادة تشكيل وفق المنطق نفسه الذي يحكم إدارة (الحدائق الخلفية). ففي ضوء هذا الإطار يصبح ما شهدته سوريا من محاولات تفكيك وإعادة هندسة للدولة والمجتمع أكثر قابلية للفهم، كما يتيح قراءة ما تتعرض له فنزويلا اليوم من ضغوط سياسية واقتصادية بوصفها جزءًا من آليات متكرّرة في النظام الدولي، تختلف في السياق والوسائل، لكنّها تتشابه في الجوهر والغاية.

## رمضان شهر العمل

أ. عبد الله صالح صدّيق

يهل هلال رمضان فتنقلب الحياة في البلاد الإسلامية وتفشو فيها مظاهر مختلفة منها الحسن ومنها غير ذلك.

ومما يؤسف له أن يعمد بعض الناس في بعض البلدان إلى قلب نظام حياتهم، فيجعلون الليل زمنَ أشغالهم والنهارَ وقتَ نومهم؛ فينامون بعد الفجر ولا يستيقظ بعضهم إلا قبيل العصر، ناسين أو متناسين أن رمضان شهر النصر والفتوحات، شهر العمل والصبر، لا شهر الخمول والكسل.

والله جل جلاله يقول: ﴿وجعلنا الليل لباسًا وجعلنا النهار معاشًا﴾.

وإن امتناع المرء عن الطعام والشراب فيه ينبغي ألا يقلل من نشاطه النهاري، وإلا فكيف يصوم ستًا من شوال وغيرها من الأيام لسنّة أو قضاء؟

أدعو كل قارئ لكلماتي أن يؤخر السحور، ويؤدي عمله في رمضان كما يؤدّيه في غيره دون تقاعس ولا تأخير؛ خصوصًا وأنّ رمضان يوافق فصل الشتاء هذه الأعوام، والله الموفق.

## الراكضون في المساجد

أ. معاوية الجندي

انتهى المصلون من السنة الراتبة، وشرعوا بقراءة أذكارهم وأدعيتهم، وما إن انتهوا منها وبدؤوا بالخروج، حتى انطلق الأولاد يركضون بحماس وسعادة إلى أطراف المسجد، ليأخذ كل منهم طاولته الصغيرة ويضعها في المكان المعتاد لحلقته.

بمرور الوقت ينتظم الطلاب في الحلقات، وتوضع المصاحف فوق الطاولات، وبحضور المعلمين والمشايخ تنتهي مظاهر الضوضاء وتبدأ مرحلة التلاوات.

هنا يعلو صوت طالب حافظ يقرأ دون تردد، وهناك نسمع صوت طالبٍ آخر يسكت ويعيد؛ علّه يتذكر بقية المحفوظ. تمرّ بجوار حلقة فتسمع تلاوة جميلة بصوت عذب، طالبٌ يُتقن أحكام التجويد ويُخرج الحروف من مخارجها. وفي حلقة أخرى تجد المعلم الصابر يساعد طالبًا يتتعتع في قراءته لكنه مثابر، يربكه تتابع الحركات، وتبادل التفخيم والترقيق في أحرف الكلمات.

ننظر لهذه الحلقات، فنغبط من أسسها وقام عليها، نغبط المعلمين والطلاب والأهلين، نغبط الباذلين المنفقين والميسرين المساعدين. نحسب أن أجر تعلّم القرآن وتعليمه لا يضيع، والجميع مثاب، ويصلهم أجرهم فوق الأرض وتحت الأرض، وربما استمر جاريًا لهم إلى يوم العرض، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

## الخلود.. داعي الإيمان وسرّ العمران

أ. محمد سعيد العامري

بعد أن هبط من الجنة وودَّع النعيم فيها؛ ظلَّ الإنسان يحمل الرغبة في الخلود وأمنيته القديمة في الحياة الأبدية، ومع أن هذه الرغبة قد أضلت كثيرًا من الخلق عن حقيقة الدنيا وأنها دار فناء لا بقاء؛ إلا أن غرسها في الإنسان إنما كان لحَكَم عظيمة وغاياتٍ جليلة، لا تتعلق بالآخرة فقط، بل بالدنيا أيضًا.

فأما الحكمة الأخروية: ففي كون رغبة الإنسان في الخلود وتشوُّف خيالِه له أدعى إلى الإيمان بالغيب والتصديق بالنعيم الأبدي؛ ولو حُرِمَ تلك الرغبة وذلك الخيال لحُرِمَ أقوى دواعي الإيمان، وضَعُفَ أثرُ الوعد الإلهي في نفسه.

وأما الحكمة الدنيوية: ففي كون طول الأمل من أعظمَ أسباب بقاء الجنس الإنساني، والتعاون الحضاري بين أجياله، وقد التفَتَ إلى هذه الحكمة الإمام الماوردي فقال: الأمل الفسيح يبعث الإنسان على اقتناء ما يَقصُر عمرُه عن استيعابه، فيرحل ويستفيد مَن بعده بما تَرَك، ولولا ذلك لافتقر أهلُ كل عصر إلى إنشاء ما يحتاجون إليه من المنازل والأراضي الزراعية ونحوها، وذلك مما يتعذر على الطبيعة البشرية؛ فلذلك أودع الله في خلقِه اتِّساع الآمال حتى عَمَروا الدنيا فعَمَّ صلاحها، وصارت تنتقل بعُمرانها من قرن إلى قرن.

## إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ

أ. مصطفى محمد رجب عمر

دعا نوحٌ عليه السلام ابنَه إلى التوحيد.. أشفقَ عليه أنْ يموتَ غريقًا مشركًا.. وتقطَّع قلبُه حزنًا وهو يناديه ليركبَ السفينة.. فحالَ الموجِ بينَهما وكان مِن المغرقِين.. حتى نفى اللهُ صفةَ القرابة بينهما بسبب عناده وشركه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾.

دعا إبراهيمُ عليه السلام أباه إلى التوحيد.. مخاطبًا إياه بلغةٍ امتزجتْ باللين والرفق والأدب.. وهو يقول: يا أبتِ.. يا أبتِ.. يا أبتِ.. لكنه أصر على الكفر وعبادة الأصنام.. وشاء الله أنْ يموتَ كافرًا.

دعا رجلٌ مِن أقصى المدينة قومَه إلى تصديق الرسل.. والإيمان بالله الواحدِ الفردِ الصمد.. أشفقَ عليهم أنْ يعبدوا أصنامًا لا تملكُ لنفسها أو لغيرها ضرًّا ولا نفعًا.. سعى لهم بالحب والخير والإيمان فقتلوه.. فانقلبَ إلى ربه وبقي على سعيه.

وفي المقابل.. جاءَ أمرُ الله لنبيه محمد ﷺ أنْ يشفقَ على نفسه.. وألا يُحمّلها ما لا تطيقُ في الدعوة، ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

الدعوة إلى التوحيد مِنْ قِبل الرسل والأنبياء والصالحين لا تعني بالضرورة حصول هداية الناس أجمعين، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

## وطن يحبّنا ونحبّه

أ. مجاهد آل غنيم

سوريا ليست مجرّد وطن وجغرافيا، بل هي وجدانٌ وأمانٌ وذاكرةٌ وحنينٌ تسكن تفاصيل الروح، كلُّ حجرٍ فيها يحمل حكاية، وكلُّ نسمةٍ تذكّرنا بأنّ في هذه الأرض شيئًا لا يُشبه غيره. خرجتْ سوريا من تحت ركام عقودٍ من القهر، ومن حربٍ مريرةٍ تركتْ ندوبها في الأرض والقلوب، وهي اليوم تلملم جراحها، وتمضي نحو التعافي على مهلٍ، لكن بإصرارٍ يعرفه مَن ذاق الألم.

أهل سوريا يقاومون البؤسَ بالعمل، واليأسَ بالأمل، ما يزالون كما عُرفوا: أعزّة كرامًا أقوياء، ينهضون رغم الجراح، يعملون بجدٍّ، يرمّمون بأيديهم ما تهدّم، يتطلّعون إلى غدٍ جديد ينهض فيه الوطن من بين الركام إلى حياةٍ أعدل وأجمل.

أما السوريون في المهجر، فقد عاشوا سنواتٍ طويلة من الغربة، حملوا أوطانهم في قلوبهم حيثما حلّوا، وصنعوا لأنفسهم حياةً جديدة، غير أنّ سؤال العودة لا يغيب عنهم، يطرق قلوبهم كل حين: هل آن الأوان؟ بين استقرار يعيشونه ووطن يناديهم بحبّ: يعيشون صراعًا مرهقًا لـمّا يُحسم بعد.

سوريا تنتظر أبناءها بشوق، لا ليعودوا زائرين، بل بناةً ومصلحين، يساهمون فيها بنهضة الإنسان قبل البنيان، ويكتبون بعملهم فجرًا جديدًا يليق ببلدٍ أحبّهم وأحبّوه.

## رمضان بين الغفلة واليقظة

أ. عبد الرحمن الإخوان

الإنسان مخلوقٌ قابلٌ للتكيّف؛ يتقبّل ظروفه، ويتعايش معها، ويبتكر من الوسائل ما يخفّف عنه مشقّتها. وهذه خصيصة حسنة، ونعمة تُعينه على مواصلة حياته ومواجهة ما يعترضه من صعوبات، مهما اشتدّت وطالت. غير أنّ النعمة قد تنقلب نقمة إذا غابت عن القلب اليقظة؛ فيصير التكيّف روتينًا جامدًا يألفه المرء، حتى يفوته من الخير الكثير وهو لا يشعر.

ورمضان زمنٌ استثنائيّ يقتضي مفارقة بعض العادات، وكفّ الرغبات، ورفع البرنامج اليومي إلى مستوى آخر. لكن التكيّف قد يعمل هنا عكس المقصود؛ فينشأ روتينٌ رمضانيّ نتعايش به مع الشهر دون أن نعيش حقيقته: نومٌ مفرط، وسهرٌ طويل، وتصفّحٌ متزايد، وخُروجٌ متسع، فتمضي الأيام سريعة، وتبقى العبادات صورةً بلا روح.

والعلاج يبدأ بإيقاظ القلب: استحضار عظمة هذا الزمان، وقيمة العمل فيه، وإخلاص النية في كل شأن، وتذكّر الغاية التي شُرع الصيام لأجلها. ثم مجاهدة النفس على تجويد العمل يومًا بعد يوم، وحفظ الوقت من الغفلات، والابتعاد عمّا يقطع عن الله أو يثقل الروح. عندها يصبح التكيّف سلّمًا للارتقاء، والخروج من رمضان على أكمل وجه.

## بين الطموح والرضا... هل يمكن أن نجمع بينهما؟

أ. لينة درمش

قد يظن البعض أن الطموح يعني عدم الرضا بالواقع، ولكنه أعمق من ذلك، فهو الدافع الذي يدفعنا لنتطور ونتعلم ونتقدم.

أمّا الرضا فهو الشعور بالامتنان، وتقدير قيمة الأشياء التي نمتلكها.

من غير الطموح قد نبقى في مكاننا ولا نتقدم، ومن غير الرضا قد نحس بيأس وقنوط، ونشعر بأن ما بأيدينا لا يكفي.

والتوازن بينهما مهم، وهو الذي يجعل الإنسان يشعر بالهدوء والسلام.

في بعض الأحيان يمكن أن يتسرب إلينا اليأس والتعب لأننا نريد الكثير وبسرعة، وهنا يأتي دور الرضا ليجعلنا أقدر على السير في الطريق، ويذكرنا بأن الخطوات الصغيرة تعد إنجازًا لا يستهان به.

وفي النهاية، يمكن للإنسان الموازنة بينهما إذا رضي بما كتب الله له، واستشعر النعم التي أنعم الله بها عليه، ثم واصل العمل سعيًا إلى مزيد من التقدم والعلم، فأجمل ما في الحياة: قلب راضٍ وعقل طموح.

## كيف تقول "لا"؟

أ. هدى الصالح

في عالمٍ تُقدَّس فيه الطاعة، وتُدرَّب الألسن على قول "نعم" قبل أن تفهم، يصبح قول "لا" شجاعةً ووعيًا، وصوتًا يعلو فوق الضجيج. كم مرّة تاه قلبك بين ما تريد وما يُراد منك؟ وكم مرّة قلت "نعم" بينما في داخلك صرخة "لا"؟ لعلّك نشأت تابعًا، لا يُلتفت إليك إلا حين تُطلب منك الموافقة والإذعان. لكن: أُخلقْتَ لتكون ظلًّا أم بصمة؟

دوّن على صفحات قلبك ما تحب وما تكره، ما تقبل وما ترفض. لا تكن هامشًا باهتًا تحت المتن، فلربما كنت أنت المعنى والنور. و"لا" في سيرة العظماء ليست كلمة عابرة، بل موقفًا أصيلاً. وتأمّل سيرة النبي ﷺ، شاور أصحابَه في أمور اجتهادية فأبدوا آراءهم بأدبٍ وتسليم للوحي؛ ولو كانت الموافقة المطلقة مطلوبة لما كانت للشورى قيمة.

"لا" في موضعها ليست تمرّدًا، بل وعي وإثبات للذات. كما تنضج الثمار بعد شمسٍ ورياح، أنت تكتمل حين تواجه وتختار وتقول "لا" حين يجب. كن أنت، لا ما يريدونك أن تكون؛ كن مع الله ولا تبالِ.

# أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ

د.خير الله طالب

الفضائح التي كشفتها قضية إبستين المنكَرة تذكرنا بأكبر أكذوبة تعرضت لها البشرية منذ بدايتها، حين صوّر عدوّها معصية ربها بأنه الطريق إلى الخلود ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾، ثم رزق الله أبوينا عليهما السلام التوبة، وأهبطهما الأرض مع إبليس الذي أقسم أن يحتنك ذريتهما إلا قليلاً، نعوذ بالله من شرّ الشيطان وشركه، ومن همزه ونفخه ونفثه.

تلك الأكذوبةُ الأولى لم تكن حادثةً عابرةً في تاريخ الإنسان، بل نموذجًا يتجدّد في كل عصر بصور شتّى، تصطلي البشرية اليوم بنار سلوكها، ثم تفاجأ بأنّ الطريق الذي ظنّته خلاصًا كان هو عين الهلاك، وتنكشف الأسرار التي تقيّد الكبار عن حسم القضايا الكبرى؛ بسبب ما أخفوا من أسرار وهتكوا من أستار.

ويتعرض الناشطون والساعون في إنهاض مجتمعاتهم لمحاولات إغواءٍ واستدراجٍ تهدف إلى إسقاطهم ثم إحكام السيطرة عليهم: رسالةٍ عابرة، أو علاقةٍ مشبوهة، أو خطوةٍ صغيرة يُظنّ أنها بلا أثر، فإذا بها تتحوّل إلى قيدٍ يُمسك بصاحبها. لكن ما الذي يجعل هؤلاء يقعون فريسةً لتلك المحاولات؟ أهي نزوةٌ عابرة؟ أم انهيارُ عقلٍ في لذّة لحظة؟ وهل يملك أحدٌ أن يزعم أنه بمعزلٍ عن هذا الباب؟ ثم أهو مستنقعٌ واحد يأتي على لونٍ واحد، أم تتبدّل ألوانه بتبدّل الناس وأحوالهم؟

مقتضى التكليف أنّ في داخل كلّ بشر شيطانًا وملاكًا، وكما في الحديث أنّ للملك لَـمّة، وللشيطان لَـمّة، من إيعاد بالخير وتصديق بالحق، أو إيعاد بالشرّ وتكذيب بالحق. وسيبقى الخطر الأدهم: غفلة الإنسان عن إبليس الخانس وفرعون الصغير الذي يعيش داخل النفس الأمارة بالسوء.

لا أحد يبدأ طريقه قاصدًا هلاك نفسه أو إحراق مستقبله، لكن خطواتٍ يستهين بها صاحبها قد تقوده إلى ما لم يكن يتصوّره، وتتجلّى هذه الحقيقة في صور متعددة، تختلف مواقع أصحابها، لكن يجمعها مسارٌ واحد:

فالرئيس أو الوزير أو الحاكم الذي يفصل نفسه عن مجتمعه، ويحيط نفسه ببطانة سوء تخونه بتزييف الحقائق والتصفيق لكل شيء، ويعزل نفسه عن أهل العلم والفكر والمشورة والحكمة والتجربة، فيبقى يتخبطه الشيطان، حتى يوقعه في شر أعماله، ثم يتبرأ منه.

والخبير الكبير والباحث المتعمق والخطيب المفوه وإمام المسجد والمعلم المتأنق، الذي يعزّ عليه أن يدُله الناس على أخطائه، يخشى على سلطانه ومكانته؛ فيقرّب منه المادحين، ويقصي الناقدين، ويحارب المنافسين بدلاً من التكامل معهم، يبحث عن مجده في الأرض، فيسقط مجده، يموت لا يسمع به أحد، ويُبقي الله لسان صدق لمن حاربهم وسعى في الوشاية بهم وسجنِهم وإبعادِهم عن ساحة كبريائه الشيطاني.

والشاب الناشئ والطالب الدارس والساعي في رسم مستقبله، يعزل نفسه عن الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ويختار منطقة الراحة، ويبتعد عن البيئة التي تعصمه من الزلل، ويغفل عن المـغريات التي قد تحرف مساره إلى مستنقعات الشهوة والاستدراج، فيقترب من مواطن لا يدرك خطرها إلا بعد فوات الأوان.

والطبيب المختص، والصيدلاني الباحث، حين يضعفان أمام ضغوط السوق أو إغراء الربح؛ فيُخفيان حقيقة التشخيص، أو يبالغون في وصفات العلاج، أو يسكتون عن آثار ينبغي بيانها، يختلّ ميزان الأمانة، ويضيع حق المريض في العلاج الناجح، ويعلق الناس في دوامات الدواء واللقاح التجاري المصنوع لصالح جلادي البشرية ومصاصي دمائها وأموالها، حتى تصير مافيا الدواء أثرى من مافيا السلاح والمخدرات.

والمهندس المؤتمن استشاري تخطيط المشاريع وتنفيذها، الذي يترك الطيّب من أجرته الحلال، فيتبع استشراف نفسه إلى الثراء على حساب جودة التنفيذ، غير آبه بعناء الناس من بعده، ولا بعذابات الضعفاء عند انهيار بنيانهم في الزلازل، أو تآكله قبل اكتمال فرحتهم به.

والتاجر والمستثمر صاحب الشركات الذي يفرّط فيما بناه، ويسعى نحو ربح عاجل مشبوه، يبحث عن المـفتي المتساهل الذي يزين له امتصاص الحقوق باسم الشطارة، ويدخله في دوامة الشبهات والمحرمات وأكل الربا، حتى يتخبطه الشيطان.

والزوج والزوجة والأشقاء والأرحام، حين يختارون التلاعب مع الشيطان على المتاجرة مع الله تعالى، يبحثون عمن يؤيد مواقفهم حقًا كانت أم باطلاً، فيَسعد بهم مَن يوافق أهواءهم ويسكت عن تلاعبهم وخداعهم ومكرهم، ويزين لهم سوء أعمالهم، وويل للناصح الصريح من سهامهم.

ألا ما أبعد هؤلاء عن النقاء، وما أقربهم إلى الشقاء والعناء، وهم يحسبون أنّهم من الخالدين.

# رواء

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

**كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)**

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com